ثنائية العدد في الخطاب القرآني
قراءة في مسارات التلقي

د. ياسر جلال شعبان محمد
قسم الأدب والنقد
كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر بأسيوط

(العدد الرابع والثلاثون)
(الإصدار الثاني .. أكتوبر)
(١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م)

ثنائية العدد في الخطاب القرآني قراءة في مسارات التلقي

ياسر جلال شعبان محمد

قسم الأدب والنقد - كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر – أسيوط – مصر.

البريد الإلكتروني: yassershaaban.47@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

العدد في القرآن الكريم له مكانة ووجود متميز، وللكشف عن جمالياته وأسراره ينبغي فهمه وتأمله في مسارات التلقي المتعددة، وكان من بين هذه المسارات: العقيدة، والقصص القرآني، والتشريع، والعدول.

وقد تبين أن العدد الثنائي "اثنين" جاء في الخطاب القرآني للتأكيد ولرفع الإيهام، ولتقوية الحق، وبيان النصر، وبيان القدرة الإلهية، وتمييز الأنواع، وإفادة الحكم تفصيلاً.

وكذلك جاء العدد صريحاً، ومشتقاً، ومعدولاً، وكل هذا كان موافقاً للتلقي وخادماً له.

الكلمات المفتاحية:

العدد – اثنان – التلقي – القرآن الكريم – الخطاب – العدول – العقيدة – التشريع

Dual number in the Qur’anic discourse areading in the paths of recepion

Yasser Jalal Shaaban Muhammad
Department of Literature and Criticism- Faculty of Arabic Language - Al-Azhar University - Assiut - Egypt
Email: yassershaaban.47@azhar.edu.eg

Abstract: The number in the Holy Quran has a distinct position and presence, and to reveal its rhetorical secrets and aesthetics, it must be understood and contemplated in its multiple contexts, and among these recepion were: belief, Quranic stories, legislation, and justice.

It turns out that the binary number “two” came in the Qur’anic discourse to confirm and raise delusion, to strengthen the truth, to demonstrate victory, to demonstrate divine power, to distinguish species, and to benefit the ruling in detail.

Likewise, the number was explicit, derived, and equitable, and all this was in accordance with the recepion and serving it.

key words:
Number - two - recepion - the Holy Qur'an - discourse - revert - belief - legislation

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، ورحمة الله للعالمين، وعلى آله وصحابته البررة المكرمين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين...

ثم أما بعد،،

فإن للعدد – عامة – مكانة قيمية وإشارية كبيرة في القرآن الكريم، ووجوداً متميزاً في الخطاب القرآني، فكانت هذه الدراسة الموسومة بـ "ثنائية العدد في الخطاب القرآني قراءة في مسارات التلقي"، وكان من أسباب اختيار البحث:

– اتصاله بالقرآن الكريم.

– محاولة فهم العدد في سياق التلقي، والكشف عن أسراره وقيمه الجمالية.

– أن العدد بجميع أنواعه وكناياته قد شغل حيزاً كبيراً في الخطاب القرآني، وفي هذا مايعزز قيمته، ويوضح أثره في المتلقي.

قد تطلب هذا أن احتاجت الدراسة للمنهج التحليلي، مستعيناً بما جاء في كتب التفسير، وأحكام القرآن، والقراءات، كي لا أتقول ما ليس لي به علم، إذ كنت – وما زلت– وجلاً؛ لأنني لا أفسر نصاً لكاتب ما، أو لشاعر من الشعراء. كما تمت الاستعانة بمنهج الخطاب، ونظرية التلقي.

الدراسات السابقة:

١– العدد في القرآن الكريم لـ "يمينة صهد"، رسالة ماجستير ١٤٣٩–١٤٤٠هـ / ٢٠١٨–٢٠١٩م كلية الآداب – جامعة أبوبكر بلقايد– الجزائر.

ويلاحظ على هذه الدراسة أن جلّها دراسة إحصائية لمواضع الأعداد وحصرها في القرآن الكريم، وما جاء في صورة الدلالة أتى إجمالاً لا يفي بالمراد، ولا يروي غلة ظمآن.

فمثلاً الحديث عن العدد اثنين ودلالته لم يتجاوز ثلاث صفحات.

٢- العدد في القرآن الكريم "دراسة إحصائية نحوية" لـ عماد أحمد حسن محيسن، رسالة ماجستير ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م جامعة القدس – فلسطين – قسم اللغة العربية.

والدراسة من عنوانها لا تحتاج إلى كثير كلام؛ لأنها دراسة عامة لكل الأعداد وكناياتها وإعرابها، فالجانب النحوي فيها لا يمتّ بصِلَة في خدمة الخطاب والتلقي.

٣- العدد في القرآن الكريم لطائفه ومسائله لـ عبدالرحمن سعود إبداح رسالة دكتوراه ١٩٩٨م قسم التفسير وعلوم القرآن – جامعة أم درمان – السودان.

والرسالة طبعت ٢٠١٦ م في عمّان الأردن.

وهي دراسة استغرقت العدد كاملاً بأنواعه ومسائله وتكاد تكون أوفى الدراسات الثلاث؛ وإن جاء الحديث عن العدد "اثنين" في حدود عشر صفحات ناقش فيها أربع آيات، ثم أفرد للعدد المعدول أربع صفحات تحدث فيها عن الآيات الثلاث في النساء وفاطر وسبأ، وأكثرها نقولات عن أئمة التفسير لم يأت فيها بجديد.

ولم أقف على دراسة تختص بالعدد "اثنين" ودلالاته في القرآن الكريم ومن ثمّ كانت هذه الدراسة.

خطة البحث:

جاء البحث في مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث وخاتمة:

المقدمة: وفيها الحديث عن أسباب اختيار الموضوع ومنهج الدراسة، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

التمهيد: ويحوي: ١- مفاهيم أولية (العدد – الخطاب – التلقي).

٢- أغراض العدد في الخطاب القرآني.

٣- العدد "اثنان" مواضعه ودلالاته في الخطاب القرآني.

المبحث الأول: ثنائية العدد في مسار تلقي العقيدة:

- قال تعالى: (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) النحل [٥١]
- (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ) غافر [١١]
- قال تعالى: (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) الأنعام [١٤٣]

المبحث الثاني: ثنائية العدد في مسار تلقي التشريع:

١- الإشهاد: قال تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) المائدة [١٠٦]

٢- الميراث: قال تعالى: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ) النساء [١١]، قال تعالى: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ) النساء: ١٧٦.

المبحث الثالث: ثنائية العدد في مسار تلقي القصص القرآني:

- قصة الغار: قال تعالى: (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) التوبة [٤٠]
- الطوفان: قال تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) هود [٤٠]، قال تعالى: (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) المؤمنون [٢٧]

- الثمرات: قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) الرعد [٣]
- أصحاب القرية: قال تعالى: (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ) يس [١٤]

المبحث الرابع: ثنائية العدد في مسار تلقي حديث القرآن عن القرآن:

- قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) الحجر [٨٧]
- قال تعالى: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) الزمر [٢٣]

المبحث الخامس: ثنائية العدد في مسار تلقي العدول:

- النكاح: قال تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ) النساء [٣]
- خلق الملائكة: قال تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) فاطر [١]
- التفكر والتدبر: قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) سبأ [٤٦]

خاتمة: وفيها أهم النتائج التي تمخضت عنها الدراسة.

تمهيد

مفاهيم أولية

العدد – الخطاب – التلقي

العدد:

عَدَّ الشيء يَعُدُّه عَدّا وتَعدَادًا وعِدّة، والاسم: العدد، قال تعالى: "نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا"(١)، يعني أن الأنفاس تحصى إحصاء ولها عدد معلوم.

فالكلمة في أصل اللغة تدور حول معنيين: الإحصاء والحساب، والمعنى الآخر: التهيئة، فالأول من العدّ، والثاني من الإعداد، يقول ابن فارس:" وإلى هذين المعنيين ترجع فروعُ الباب كلها. فالعَدُّ: إحصاء الشيء. (٢) والإعداد تهيئته

وهذا مرادنا من لفظ العدد، لأن ما جاء من أقوال العلماء واللغويين في اصطلاح العدد لا يخرج عن بيان أقسامه ومراتبه، أو الحديث عن كفاياته.

والعدد بوجه عام من الصيغ الرمزية التي تحمل دلالات إشارية مثلما حملت دلالات قيمية.

الرقم والعدد:

يُفرق بين الرقم والعدد بأمرين:

الأول: أن الأرقام هيئة شكلية ورموز للأعداد.

الثاني: الأرقام محدودة، والأعداد ليست كذلك، فالأرقام عددها عشرة هي [٠،١،٢،٣،٤،٥،٦،٧،٨،٩] فينحصر معناها على لافتة أو ورقة، أما الأعداد فلا ينتهي عدُّها.

---

(١) سورة مريم الآية ٨٤.

(٢) مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر،الطبعة١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ٢٩/٤

الخطاب:

دار المعنى اللغوي للخطاب حول مراجعة الكلام، أو الإفهام للمخاطب، ومن ثمَّ فهو وسيلة تواصل بينك وبين الآخر، ومادة: الخاء والطاء والباء أصلٌ " في الكلام بين اثنين، يقال خاطبهُ يُخاطِبه خِطاباً"(١).

والمتأمل أيضاً في لفظ الخطاب يقف على حقيقة تداوله واستعماله لدى النقاد القدامى في تراثنا الأدبي والبلاغي، وقد نص عليه الباقلاني في مستهل حديثه عن معجزة القرآن الكريم إذ يقول: " ونصفُ ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب، وترتيب وجوه الكلام " (٢).

ويواصل الباقلاني حديثه في مواضع متفرقة من كتابه إعجاز القرآن بجملة من الألفاظ مضافة إلى لفظ الخطاب من أمثال " نظام الخطاب – أنواع الخطاب – وجوه الخطاب – أجناس الخطاب– مقصود الخطاب– تفاوت أنواع الخطاب– سُوقي الخطاب– عجُز الخطاب– تنزيل الخطاب– فصل الخطاب"(٣).

مما سبق نستنبط مدى الوعي لدى علمائنا القدامى، بل ومدى الحضور لمصطلح الخطاب في الدرس النقدي.

والخطاب يقع بوصفه مصطلحاً في دائرة الاختلاف والإشكالية التي يعاني منها النقد العربي كافة.

ويمكننا إرجاع هذا الاختلاف حول مصطلح الخطاب إلى عدة أسباب منها:

١– اختلاف المشرب الثقافي لدى النقاد العرب ففريق ينتمي إلى الثقافة الإنجليزية، وثانٍ يولي وجهه نحو الثقافة الفرنسية، وفريق ثالث تتلبسه الثقافة الأمريكية وهكذا...

---

(١) مقاييس اللغة ١٩٨/٢

(٢) إعجاز القرآن، تحقيق السيد صقر، الناشر دار المعارف – القاهرة – ص ٦

(٣) لمزيد عناية تراجع صفحات ١٣، ٢٤، ٢٧، ٣٠، ٣٧، ١٥٨، ١٩٥، ٢٠٧، ٣٠٢.

٢- الاختلاف في ترجمة المصطلح وهذا ما أسلمنا إليه السبب الأول فضلاً عن تفاوت النقاد المترجمين في امتلاكهم ناصية اللغة قوة وضعفاً.

٣- أن الخطاب " ينتمي إلى أكثر من حقل معرفي، واتجاه بحثي في الفكر المعاصر "[١].

حيث تتجاذبه الدراسات الفلسفية، واللسانية، والسيميائية، والتداولية، والنقد الثقافي.

بيد أن مجموعة من الخصائص العامة تواضع عليها كثير من النقاد تقربنا من مفهوم الخطاب منها:

- أن الخطاب وسيلة تواصلية، وهذا مستوحى من المعنى المعجمي.

- قصدية الخطاب وتتضح من خلال العلاقة التخاطبية، وقد نص على ذلك الباقلاني حيث قال " لا يجوز أن يقع في الخطاب إلا مقصوداً إليه... " [٢].

وذلك لأن الخطاب بوصفه وسيلة تواصلية يتطلب القصدية للتأثير بطريقة ما في المتلقي.

التلقي:

لَقِيَ: من باب تعب، تقول: لقيته ألقاه لُقَيّا ولُقَىً ولِقَاءً.

والكلمة تدور لغويا حول عدة معان منها: الاستقبال، والأخذ، والإبلاغ، والإملاء، والتلقين.

(١) مؤيد عبيد آل صوينت: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي، كلية الآداب – الجامعة المستنصرية ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩ م، رسالة دكتوراه، ص٢.

(٢) إعجاز القرآن، ص ٥٧.

تقول العرب: تلقاه: استقبله، وتلقاه منه: أخذه، وكل شيء من الأشياء إذا استقبل شيئا أو صادفه فقد لقيه. وألقيت إليه القول: أبلغته، وألقيت عليه: أمليته، والرجل يلقي الكلام: يُلَقِّنه. (١).

وتكاد هذه المعاني مجتمعة أن توحي بالنفع والفائدة في جنب المتلقي، وكأنها في مدلولها أقرب منزعا إلى التعليم والعلم، وأولى بها تفسيرا.

فالتلقي هو دراسة استقبال النصوص، بغية الوقوف على مساراتها وأنواعها.

ومصطلح التلقي ترجمة لكلمة" Reception" أي: الاستقبال، وقد بدأ الاهتمام بنظرية الاستقبال في ستينيات القرن العشرين في " ألمانيا على يد جماعة مدرسة كونستانس " (٢)

عند " إيزر" و" هانز روبرت ياوس"

والتلقي بوصفه مصطلحا مختارا؛ لأنه "أقرب إلى الدلالة المقصودة، وهي تلقي القاريء للنصوص الأدبية بغرض فهمها وتفسيرها، أما كلمة الاستقبال فلم تكن مألوفة بالنسبة لآذان المشتغلين بحركات النقد في الشرق والغرب على السواء فضلا عن أن لها تعلقات أخرى تجعلها أقرب إلى الإدارة الفندقية عنها إلى الأدب"(٣).

فالاختيار لمصطلح التلقي مرجعه إلى أمرين اثنين:

أحدهما: عدم الإلف بكلمة الاستقبال

---

(١) ينظر: الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، ٥/ ٢١٦، وينظر: الفيومي: المصباح المنير، المكتبة العلمية– بيروت، جزء ٢/ ٥٥٨

(٢) د. فاطمة البريكي: قضية التلقي في النقد العربي القديم، دار العالم العربي للنشر والتوزيع، الإمارات – دبي، ط أولى ٢٠٠٦م، ص ٣٣ وما بعدها

(٣) د.عثمان فكري: التلقي والأسلوب الصحفي، الناشر المكتب العربي للمعارف– القاهرة، ط أولى ٢٠١٦م، ص ٧١

الآخر: أن كلمة الاستقبال تحمل دلالات مادية وإدارية قد تكون غير مناسبة لكل المجالات، أما كلمة التلقي فإنها تحمل دلالة عرفية ولغوية توحي بمجال العلم والأدب، فضلا عن دلالة شرعية خلال ورودها في أكثر من موضع في القرآن الكريم مثل قوله تعالى" فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" (١). وقوله " وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ" (٢) وقوله تعالى" إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ" (٣)

وممارسة التلقي في النقد العربي ممارسة قديمة بعيدا عن المصطلح الغربي، بل إن فحوى النظرية راعاها الشاعر الجاهلي في صورة القاريء الضمني حين عمد إلى اللهجة القرشية بحثا عن القبول والذيوع لدى المتلقي الذي يستوعب هذا المستوى اللهجي على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم.

وشبيه بهذا الموقف ما كان ينتهجه أصحاب مدرسة عبيد الشعر من تنقيح ومراجعة لأشعارهم، لتكون في أبهى حلة، وأحسن صورة، وأجود نظم قبل عرضها على المتلقي أو المستمع، وهو بهذا يراعي القاريء الضمني.

ومثلما راعى الأدبُ حال المتلقي والمستمع، كذلك كان النقد موازيا للأدب في الاهتمام بالمتلقي، فقضايا الذوق وعمود الشعر وغيرهما قضايا لاتتعلق بمنهجية القصيدة وبنائها الفني فقط، وإنما تتعلق بالذائقة العربية لدى المتلقي الذي ألف هذا النهج في التعبير عن حياته تصويرا ووصفا.

وكلام ابن قتيبة حين قال" وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام..." (٤) إنما يعد من قبيل العقل الجمعي الذي يمكن إدراجه تحت نظرية التلقي فيما يعرف بـ" أفق الانتظار".

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٧

(٢) سورة النمل، الآية ٦

(٣) سورة ق، الآية ١٧

(٤) الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط دار المعارف، ١/ ٧٦

وبالرغم مما سبق فإن نظرية القراءة والتلقي لا نأخذ منها إلا ما يناسب الأدب العربي بيئة وثقافة، وما لا يتعارض مع كتابنا وعقيدتنا، فالقرآن الكريم لا توجد فيه إلا قراءة متدبرة وواعية في تلقي الأوامر والنواهي، وكل ما يتعلق بأحكام الشريعة، وما ينظم حياة الفرد داخل مجتمعه دينًا ودنيا.

مقاصد العدد في الخطاب القرآني

- إن العدد – على إطلاقه – يحمل في طياته أكثر من معنى، لا من حيث القيمة العددية وحسب، بل من حيث الخطاب الإشاري والدلالة الإيحائية من خلال السياق العام الذي وجد فيه العدد.

فالعدد واحد يدل على الوحدانية والتفرد بجانب القيمة، فإذا جاء في سياق مثل " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " دل ذلك على الإقرار من قبل المتلقي بالوحدانية لله – تعالى – مع إخلاص العبادة والتوجه إليه سبحانه دون سواه.

- قد يأتي العدد – أيضاً – في الخطاب القرآني ويراد منه القيمة العددية ولا ضرر في ذلك؛ لأن هذه القيمة هي أولى درجات الدلالة للفظ.
- تضاعف القيمة العددية في بعض مسارات التلقي القرآن الكريم، فـ " في الخطاب القرآني ظهر للعدد وجود متميز جداً من خلال استيفاء الخطاب القرآني لأكثر الأعداد المتداولة، كما أن قيمة العدد تضاعفت لسياقات معينة " [1].

ومضاعفة العدد تنقسم قسمين:

القسم الأول: مضاعفة مادية.

القسم الثاني: مضاعفة معنوية " إيمانية ".

(١) د. حسن عبدالهادي الدجيلي: جذور النظرية السيميائية في الخطاب القرآني، كلية الآداب – الجامعة المستنصرية (د.ت)، ص١٧.

فالأول مثل آية السنبلة – إن صح التعبير – أو هي آية الإنفاق في سبيل الله " مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ" (١).

والقسم الثاني مضاعفة معنوية مثل قوله تعالى " إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ " (٢).

فالمتأمل هنا يجد أن المضاعفة تتدرج تصاعدياً أو إيمانياً، فالعشرون خمس المائة، فإذا زاد الإيمان في النفوس فإن نسبة العدد تزداد – أيضاً – تفاوتاً واتساعاً حتى يكون الواحد مقابل عشرة رجال من الكفار، وقد كان من قبل الواحد مقابل خمسة فقط.

إلا أن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد وهذه النسبة؛ لأن الله تعالى الذي خلق الإنسان علم أن ستعتريه حالات الضعف كما اعترته حالات القوة، ومن هنا فإن العدد لا يتضاعف بل يضعف في مساره فيتدرج تنازلياً حيث يصاب الإنسان بالوهن، فيصير الواحد من المسلمين مقابل الاثنين من الكافرين، وهذا ما بيَّنته الآية التالية في قوله تعالى " الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يغلبوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ الله والله مَعَ الصابرين " (٣)

وفي هذا التلقي إشارة إلى أن الإيمان يزيد وينقص.

– قد يذكر العدد ويراد به جزء العدد لا قيمته العددية مثل قوله تعالى " ثَانِيَ اثْنَيْنِ " أي: واحد من الاثنين لا أنه ثانٍ في التراتب.

وسيأتي – إن شاء الله – في موضعه بشيء من التفصيل.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦١.

(٢) سورة الأنفال الآية ٦٥.

(٣) سورة الأنفال الآية ٦٦.

– أن مدلول العدد يختلف تقديراً وقيمة باختلاف الخطاب، فالخطاب الإلهي يختلف في مدلول العدد عن الخطاب البشري بالرغم من أن العدد واحد، وهذا المقصد العددي يظهر جلياً في موازنة الزمن بين الحياة الدنيا، والزمن في الحياة الآخرة مثل قوله تعالى " وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ" (١) وقوله " فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ " (٢).

– يأتي العدد كذلك في مسار النسق التقابلي أو الثنائيات المتقابلة مثل: الهدى والضلال، الظلمة والنور، الإحياء والإماتة.

ومن المقاصد أيضاً: التفريق والجمع، ورفع التوهم، والمبالغة والتضعيف، والاختبار والفتنة (٣).

وتفصيل الحكم، والزيادة؛ لإقامة الحجة، والتشريف.

العدد " اثنان " مواضعه ودلالاته في القرآن الكريم

يصنَّف العدد "اثنان" في دائرة الأعداد المفردة، والتي تشمل لفظ العدد " واحد – اثنين" وهذه الأعداد المفردة مما يراعى فيها الجنس، بمعنى مطابقة العدد لمعدوده في التذكير والتأنيث "، وتعتبر المطابقة في هذه الأعداد جرياً على القياس والمألوف في قواعد اللغة، حيث يقابل المذكر بالمذكر، والمؤنث بالمؤنث.

وإنما لم تقع المخالفة في الجنس بين العدد والمعدود في الواحد والاثنين؛ لأنهما لا يقعان صفة للجمع"(٤).

ولفظ "اثنان" اسم للعدد التالي للعدد "واحد" فكأنه ثنى الواحد ثنياً.

---

(١) سورة الحج الآية رقم ٤٧.

(٢) سورة المعارج الآية رقم ٤.

(٣) لمزيد بيان يراجع: د. مصطفى النحاس: العدد في اللغة (دراسة لغوية ونحوية) مكتبة الفلاح – الكويت، ط أولى ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ص٩٦ وما بعدها.

(٤) د. مصطفى النحاس: العدد في اللغة، ص٢١٥.

واثنان واثنتان أصلهما " ثنيان – ثنتيان " حذفوا الياء منها بقي ثِنانِ وثنتان، ولما كان ثنان ناقصاً في العدد ألحقوا بها همزة وسكنوا ثاءها، ثم زادوا على ثنتان أيضاً همزة للمجانسة والموافقة فقالوا: اثنان واثنتان " [١].

العدد اثنان ورد في القرآن الكريم على وجوه متعددة غير محصور في الدلالة العددية النصية، وإنما تعداها إلى الدلالة البيانية ليوحي اللفظ "اثنان" بما يأتي:

١. معنى الوارثات من البنات مثل قول الله تعالى: "فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ"[٢].

٢. معنى الكلالة مثل قوله تعالى " فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ"[٣] والكلالة: من لا ولد له ولا والد وورثه الإخوة أو الأخوات أو غيرهم.

٣. تقرير شاهدي العدل في الوصية مثل قوله تعالى "اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ"[٤].

٤. معنى الحياة الجديدة، فالعدد اثنان في قصة سيدنا نوح – عليه السلام – تعدّي النصية العددية ليشمل كل زوجين من المخلوقات التي حُملت بالسفينة للدلالة على الحياة والاستمرارية في البناء ويكون هذا بالتكاثر، قال تعالى " قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ " [٥] من الذكر والأنثى.

٥. معنى الملازمة مثل قوله تعالى " ثَانِيَ اثْنَيْنِ"[٦] فضلاً عن شرف الصحبة، ونصرة الله تعالى لنبيه – ﷺ.

---

(١) الفيروز أبادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار – الناشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط ١٩٩٦م – ٩٤/٢.

(٢) النساء الآية رقم ١١.

(٣) النساء الآية رقم ١٧٦.

(٤) المائدة الآية رقم ١٠٦.

(٥) هود الآية رقم ٤٠.

(٦) التوبة الآية رقم ٤٠.

المبحث الأول

ثنائية العدد في مسار تلقي العقيدة

يتناول المبحث ثلاث آيات من سور النحل وغافر والأنعام، الآية الأولى قوله تعالى: "وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ"(١).

والآية الثانية قوله تعالى: "قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ"(٢).

والآية الثالثة قوله تعالى: " ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ"(٣).

معلوم سلفاً أن الاسم المفرد والمثنى يدلان على العدد بلفظيهما من دون حاجة إلى تمييز، فلفظ " رجل – طالب " يدل على واحد مثلما أن لفظ " رجلان " يدل على اثنين، ولكن إذا جيء المعدود مشفوعاً بالعدد في المفرد والمثنى أوحى ذلك بسرٍ بلاغي في الخطاب القرآني دل عليه سياق الآيات.

فآية النحل " وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ... " يأتي العدد فيها داخل مسار تلقي النهي مصاحباً لقيمته العددية، ويمكننا مناقشته من خلال نقاط محددة هي:

- النهي.
- تعليل النهي.
- التأكيد بالصفة.

فالنهي عن اتخاذ العدد اثنين في مجال العقيدة؛ لأنها تفسد بالتعدد، فالشراكة مشاكسة واختلاف، وقد وضَّح القرآن الكريم في غير موضع هذه الصورة من حيث فساد السماوات والأرض بالتعدد في الآلهة مثل قوله تعالى "

---

(١) النحل الآية رقم ٥١.

(٢) غافر الآية رقم ١١.

(٣) الأنعام الآية رقم ١٤٣.

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا "[1] وقوله تعالى "ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"[2].

فالفساد هنا حاصل من جهتين: فساد التعدد، وفساد الشراكة فالنهي عن التعدد تنزيه الله ﷻ، وفساد الشراكة تخليص للمملوك من قيد العبودية لجماعة.

وجاء الوصف بـــ "متشاكسون" ليزيد الصورة نفوراً؛ لأن" الشكس: العسير لا يرضى بالإنصاف"[3] ولو قيل: في غير القرآن: لا تتخذوا إلهين فقط لتوهم السامع أن النهي متوجه إلى اتخاذ جنسين آلهة، لكن يجوز – كما ذكر السيوطي – أن يتخذ من نوع واحد عدد آلهة[4].

فالنهي – عامة – راجع إلى التعدد لا إلى الجنسية، أو إلى إثبات الإله؛ لأن لفظ "اثنين" في الآية " لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ" هو مساق النهي ومقصوده، حيث إن الوحدانية من لوازم الإلهية، وهذا الوجه يقوي من ذهب إلى أن الآية فيها تقديم وتأخير – كما سيأتي – والتقدير، " لا تتخذوا اثنين إلهين " بنصب اثنين مفعول أول وإلهين مفعول ثان.

وتعليل النهي في الآية "لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ" أتناوله من عدة وجوه هي:

الوجه الأول: لو كان النهي مقصوداً على اتخاذ الاثنين لاختلف الناس في اتخاذ ثلاثة أو أكثر، ولذا جاء النهي معللاً بطريقة القصر "إنما" ليدل على أن العبادة ينبغي أن تتوجه إلى الواحد الأحد،

---

(١) الأنبياء الآية رقم ٢٢.

(٢) الزمر الآية رقم ٢٩.

(٣) عبد المجيد الشيخ عبدالباري: الروايات التفسيرية في فتح الباري، الناشر: وقف السلام الخيري ط أولى ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٦ م، ٢٠١٠/٢.

(٤) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ٢٣٤/٣.

مجمع التعليل بذلك بين الألوهية والوحدانية، وانقطع بذلك أيضاً كل تعدد لدى الناس.

الوجه الثاني: أن الشيء يذكر معللاً أبلغ من ذكره بلا علة، كما قرر ذلك الزركشي[1] في أن النفوس تنبعث إلى نقل الأحكام المعللة بخلاف غيرها.

الوجه الثالث: أن لفظ "إلهين" جُعِل صفةً لاثنين أبلغ وأنسب للمقام، وهذه مسألة تنازعها علماء النحو وعلماء البلاغة، إذ رأى النحويون أن " اتخذ" نصب مفعولين هما "إلهين اثنين" بينما يرى أهل المعاني أن في الآية تقديماً وتأخيراً والتقدير "اثنين إلهين".

وهذه المسألة تعرف بتضاد المعنى والإعراب، أما توجيه المسألة فيتمثل في عموم وخصوص من جهة بين إلهين واثنين؛ لأن اتخاذ اثنين يقع على ما يجوز وما لا يجوز فهو أعمّ، "وإلهين لا يقع إلا على ما يجوز، فإلهين أخص فكان جعله صفةً أولى"[2].

وتقدمت الصفة "إلهين" على موصوفها "اثنين" فانتصبت على الحال، والتقدير: "اتخذوا إلهين اثنين"، وهذا مناسب لتلقي الآية في مقام النهي؛ لأن نصبها على الصفة يكون تأكيداً مجرداً، بخلاف انتصابها على الحالية.

ولهذا أوردها الزركشي في اعتبار التفاضل بين العبارتين يكون في مواقع التركيب.

أما الصفة والتأكيد بها، فإن من دواعي مجيئها التأكيد لرفع الإيهام "فإن إلهين للتثنية، واثنين بعده صفة مؤكدة للنهي عن الإشراك، ولإفادة أن النهي

---

(١) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، ودار المعرفة بيروت، لبنان، ط أولى ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، ٣/٩١.

(٢) السابق ٣/٢،٢٨٣/١٢٠.

عن إلهين إنما هو لمحض كونهما اثنين فقط، لا معنى آخر من كونهما عاجزين أو غير ذلك " [١].

ولسائل أن يسأل: ما فائدة الصفة في الآية؟

ولمزيد إيضاح أقول: إن كلمة "إلهين" بذاتها تحمل معنى المثنى، ثم جاءت تالية لها كلمة "اثنين" التي هي للتثنية !

وقد فصل الزركشي القول في هذا نقلاً عن ابن الخباز قائلاً: " إن فائدتها توكيد نهي الإشراك بالله ﷻ... وأنه لما كان النهي واقعاً على التعدد والاثنينية دون الواحد أتى بلفظ الاثنين؛ لأن قولك: لا تتخذ ثوبين يحتل النهي عنهما جميعاً، ويحتمل النهي عن الاقتصار عليهما، فإذا قلت: ثوبين اثنين، علم المخاطب أنك نهيته عن التعدد والاثنينية دون الواحد، وأنك إنما أردت منه الاقتصار على ثوب واحد فتوجه النفي إلى نفس التعدد والعدد"[٢].

ولم يقتصر التوكيد في الآية على الصفة "اثنين"، وإنما وقع التأكيد بها ثم زاد عليها توكيداً آخر بلفظ الواحد في قوله تعالى " إِنَّما هُو إِلَه وَاحِدٌ" لمزيد عناية، فضلاً عن أن لفظ "إلهين" أثبت الألوهية ثم جاء بطريق القصر ليثبت الوحدانية.

ليس هذا فحسب، بل إن مسلك الخطاب القرآني هو ما اعتادته العرب في بيانها، وطرق قولها، وقد انتبه إلى هذا أبو الفتح عثمان بن جني حيث قال: "اعلم أن العرب إذا أرادت المعنى مكَّنته، واحتاطت له فمن ذلك التوكيد... " [٣].

---

(١) الإتقان للسيوطي ٢٣٣/٣.

(٢) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ٤٣٣/٢.

(٣) الخصائص، تحقيق محمد على النجار – مكتبة العلمية – ١٠١/٣.

ومن الاحتياط أن يجيء التوكيد للتثبيت والتمكين فـ " يؤكد بالصفة كما تؤكد هي؛ نحو قولهم: أمسِ الدابر، وأمسِ المدبر، وقول الله – عز اسمه – "إلهين اثنين"[1].

ويستنبط من كلام العلماء أن الاحتياط عند ابن جني مساوٍ لرفع الإيهام عند السيوطي، والاحتمال عند الزركشي.

فمسار التلقي–هنا– في مجال العقيدة مسار تأسيسي للخطاب القرآني يؤكد من خلاله الحقيقة الأولى والكبرى في أركان الإيمان، هذه الحقيقة تتمثل في إفراد الله–تعالى– بالألوهية، فحقيق على الخلق أن يتوجهوا إليه خوفا ورجاءً، في الضراء والسراء.

ووافق الخطاب التأسيسي مسار التلقي في مجال العقيدة أن الاية موضع التحليل جاءت في سورة النحل وهي سورة مكية يتسم الخطاب فيها بشيء من العناد والتحدي في المجتمع المكي، ومعلوم سلفا أن النبي–ﷺ– مكث ثلاثة عشر عاما يرسخ مفهوم العقيدة في هذا المجتمع؛ لأنه متى صحت المقدمات سلمت النهايات، ومتى صفا التوحيد قُبِلت العبادات.

من أجل ذلك جاء خطاب التلقي مؤسسا للتوحيد، ومتبعا إياه بمظاهر القدرة من خلق السماوات والأرض، وكشف الضر. فله الدين واصبا.

أما الآية الثانية للخطاب القرآني في مجال العقيدة فهي قوله تعالى "قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ"[2].

الآية في مسار التلقي تبين تكذيب الكافرين بالبعث واليوم الآخر، ومما هو معلوم من الدين بالضرورة أركان الإيمان الستة، وفيها الإيمان باليوم الآخر الذي لا يصح الإيمان من دونه؛ لأن التكذيب بركن واحد هو تكذيب بالأركان جميعها.

---

(١) السابق ٣/١٠٥.

(٢) غافر الآية رقم١١.

وإفراد هذا الركن في القرآن الكريم لما له من كبير أثر في حياة الناس عامة، والمؤمن بخاصة فهو " أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل، واليقين هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل " (١).

فالرغبة في حال المؤمنين ليزدادوا إيماناً، والرهبة في حال الكافرين ليرعووا.

وتعد آية سورة البقرة مفسرة لآية غافر، قال تعالى " كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" (٢)، فالموتة الأولى في الآية معناها: العدم، والموتة الثانية معناها: بلوغ الأجل، وقبض الروح، والحياة الأولى في الآية معناها الخلق والإيجاد، والحياة الثانية معناها: البعث للحساب يوم القيامة.

وإطلاق الموت على العدم من باب المشاكلة للموتة الثانية التي هي القبض وبلوغ الأجل.

وفي تسمية الخلق بالإماتة مجاز مرسل باعتبار ما كان؛ والاستفهام الذي خرج عن معناه إلى اليأس والقنوط، فضلاً عن الطباق بين الإماتة والإحياء.

ويتكرر الاستفهام في القرآن في سياق حكاية أهل النار متمنين الخروج أو التخفيف أو طلب الشفاعة.

والإنسان حين يغلب عليه اليأس يسعى إلى أدنى الطلب لا في قيمته، ولكن في تنكيره بحيث تتغير حالته التي هو عليها: يقول ابن عاشور" وتنكير خروج للنوعية تلطفاً في السؤال، أي: إلى شيء من الخروج قليل أو كثير؛ لأن كل خروج ينتفعون به راحة من العذاب... وتنكير سبيل كتنكير خروج أي: من وسيلة كيف كانت بحق أو بعفو، بتخفيف أو غير ذلك " (٣). مثلما حكاه

---

(١) عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق/ عبدالرحمن ابن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط أولى ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠م، ص٤٠.

(٢) سورة البقرة، الآية رقم ٢٨.

(٣) التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر – تونس، ط ١٩٨٤م، ٩٩/٢٤.

القرآن الكريم في مواضع متعددة " فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيْلٍ" [١] " ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ"[٢] "فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا" [٣] "هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ"[٤].

وطريقة الحكي في الآية (قالوا، وقال)، مثلما يقتضي جواباً عن سؤال، وهذا ما كان ولكن بطريق التلميح لا التصريح وسياق الآيات يشرح ما أوجز.

فالآية التالية لآية غافر قوله تعالى: "ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ"[٥] . تحمل جواباً وحكماً! كيف ذلك؟

فالجواب:" ذلكم" أي العذاب الذي أنتم فيه، جاء رداً على سؤال" فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيْلٍ ".

أو أنهم أجيبوا بـ "إضمار قال الله: لا"[٦] وهنا تكتمل حوارية الحكاية، والعدول عن الجواب الصريح لا يناسب المقام، فالأمر مبرم ومقضي بعذاب سرمدي بسبب ترك توحيد الله تعالى، وإشراك غيره في العبادة.

فالحكم له سبحانه، وناسب تذييل الآية سياق الخطاب فكان التذييل مكملاً للحكم، فهو العلي الكبير فلا مماثل ولا شريك.

وكان من نتيجة الإحياء والإماتة أن أقر الكافرون بالبعث، ولات حين مندم، إذ يتوسلون في حياة ثالثة، ويطلبون من الله الرجوع، إلى الدنيا، إلى دار العمل ولكن هيهات ما يتمنون.

---

(١) غافر الآية رقم ١١.

(٢) غافر الآية رقم ٤٩.

(٣) الأعراف الآية رقم ٥٣.

(٤) الشورى الآية رقم ٤٤.

(٥) غافر الآية رقم ١٢.

(٦) ابن أبي زَمنين: تفسير القرآن العزيز، تحقيق أبو عبدالله حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز، الناشر الفاروق الحديثة مصر، ط أولى ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ١٢٧/٤.

وفضلاً عن الإقرار بالذنب، فالآية اعتراف بقدرة الله تعالى الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، لذا جاء التعبير بالمثنى علامة وعدداً، فلو قيل: موتتان وحياتان" لدل ذلك على المثنى بعلامته فقط، أمَّا ذكر "اثنتين" فقد دلَّ على المثنى بعلامته، والعدد بلفظه، وهذا ابلغ في بيان طلاقة القدرة.

وأختم الكلام في هذه الآية بملحظ إعرابي للفظ "اثنتين" بأنه نعت لمصدر محذوف تقديره (إماتتين اثنتين)[1]، وذكر محي الدين الدرويش: أن "اثنتين" مفعول مطلق ناب عدده عن المصدر[2].

والوجه الثاني في الإعراب يناسب بلاغة التعبير بـ "اثنتين" ويؤيد ما ذهبت إليه من أن اللفظ "اثنتين" دلَّ على المثنى علامة وعدداً فأقيم مقامه.

أما الآية الثالثة فقوله تعالى " ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ" (سورة الأنعام).

الآية يحيط بها مساران للتلقي عام وخاص، فالعام هو أن الله – تعالى – المتفرد بالخلق والإنشاء في كل أنواع النبات والأنعام قال عز وجلّ " وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ"[3] وقال سبحانه: " وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا" [4].

أما الخاص فهو الحلال والحرام من الأنعام، ونبذ أعراف الجاهلية وعقائد الوثنية، فإن الله تعالى كما تفرد بالخلق تفرد كذلك بالأمر، فلا مرجعية إلا إليه فيما خلقه من الأنعام بكافة أوصافها، و"لا فرق بين ذكرانها وإناثها،

---

(١) ينظر: الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط ثالثة، ١٤٢٠هـ، ٤٩٦/٢٧، وكذا: تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي بيروت [د.ت] ٢٦٩/٧.

(٢) إعراب القرآن وبيانه، دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سوريا، دار اليمامة – دمشق بيروت، ط رابعة ١٤١٥هـ، ٤٦٤/٨.

(٣) سورة الأنعام الآية رقم ١٤١.

(٤) سورة الأنعام الآية رقم ١٤٢.

فلا بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام في الإسلام، بل إن الأنعام كلها يعمها حكم الإباحة وهي حلال طيب"[١] إلا ما جاء فيه نص للتحريم وقد شمل أربعة أنواع هي:

١- الميتة.

٢- الدم المسفوح.

٣- لحم الخنزير.

٤- ما ذبح لغير الله.

قال تعالى " قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" [٢].

أما لفظ العدد في الآيتين "اثنين" فجاء منصوباً واختلف في عامل النصب فيه:

فريق يرى أنه منصوب على البدل من قوله "ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ" وهو ظاهر قول الزمخشري وأبو البقاء الذي صرح بقوله: واثنين بدل من الثمانية [٣].

وفريق آخر يرى أن "اثنين" في الآية منصوب بـ "أنشأ" مقدراً ومِن تتعلق بما نصب "اثنين" أي: أنشأ من الضأن اثنين [٤].

---

(١) محمد المكي الناصري: التيسير في أحاديث التفسير، دار الغرب الإسلامي بيروت – لبنان ط أولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ١٧١/٢ وما بعدها.

(٢) الأنعام الآية رقم ١٤٥.

(٣) ينظر: عمر بن عادل الحنبلي: اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – ط أولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٤٧٧/٨.

(٤) ينظر: السمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم دمشق، ١٩٣/٥.

ومع وجاهة الرأي الثاني فإنه حملٌ على بعيد مقدر، خلافاً للبدل في القول الأول هذا من جهة.

أما الجهة الثانية في ترجيح القول الأول أن البدل هنا بدل تفصيل له دور في تلقي الآيات وموضع الاستشهاد، وفائدة التفصيل في البدل هي " التوصل لذكر أقسام الذكور والإناث توطئة للاستدلال الآتي في قوله " قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ" (١).

وفائدة ثانية للتفصيل هي طريقة التوزيع لتمييز الأنواع المتشابهة، فجعل الضأن والمعز في جانب لتقاربهما في الذبح، وكذلك جعل الإبل والبقر في جانب لتقاربهما فإن الإبل تنحر ويجزئ الذبح، والبقر تذبح وتنحر.

وأخيراً فإن الآية قد دلت على وجه من وجوه الحساب الأربع" الجمع – الطرح – الضرب – القسمة "، وهذا الوجه هو الجمع في قوله تعالى "ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ" حاصل جمع اثنين من الضأن والمعز والإبل والبقر.

(١) التحرير والتنوير، ٨ أ /١٢٧.

المبحث الثاني

ثنائية العدد في مسار تلقي التشريع

يتناول المبحث مسارين لتلقي الخطاب في التشريع هما: الإشهاد، والميراث، وعجيب أن يتعلق السياقان بحالة واحدة تجمعهما وهي الموت أو الوفاة، وبكلمة واحدة كذلك وهي [الوصية– ويوصيكم]، وحثُّ المخاطب على الأمرين قد لا تترتب عليه فائدة في نظر المتعجل، بيد أن الوصية تتعلق بضعفاء إن تركوا لغيرهم منعوهم حقوقهم، أو انتقصوها مثل الذي يقع في حق النساء، لكن بماذا ينتفع الموصي؟ ينتفع بصلة رحم قُطعت أو كادت حين يجعل من ماله نصيبا لغير ذوي الفروض، فيؤلف القلوب ويقدم لنفسه يوم لا ينفع مال ولا بنون.

أولاً: الإشهاد:

أعني بالإشهاد: الوصية عند حضور الموت كما ورد في آيات القرآن الكريم قال تعالى " أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ" (١) وقوله تعالى " كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ " (٢).

أما الآية موضع الدرس والبحث فهي قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ"(٣).

الحديث هنا عن الوصية حيث إن الشهادة تقوم باثنين كما قامت باثنين في النكاح والبيوع والدين والطلاق.

---

(١) البقرة الآية رقم ١٣٣.

(٢) البقرة الآية رقم ١٨٠.

(٣) المائدة الآية رقم ١٠٦.

ومسار الآية الوصية والإشهاد في السفر يؤيد ذلك سبب النزول للآية الكريمة من أن رجلاً من بني سهمٍ قد خرج في سفر مع " تميم الداريّ" وعَديّ بن بدَّاء وكانا نصرانيين وقت حدوث القصة، أسلم بعد "تميم" وبقي "عديّ" على نصرانيته، ثم مات السهميّ بأرض ليس فيها مستلم وكان قبيل موته قد نسخ ما معه متاع وجعله في لفافة أخفاها في متاعه، ثم أوصى الرجلين أن يسلما متاعه إلى أهله حين عودتهما، وكان في المتاع "جام" أي: إناء من فضة مُخَوَّص من ذهب استولى عليه الرجلان وباعاه[١] ثم ردّ تميم الداري ثمن ما أخذه حين أسلم.

وهذا ما يعرف بـ سياق الموقف، أو المناسبة، أو سياق الحال؛ لالتصاقه بأسباب النزول في القرآن الكريم. وسياق الموقف نظرية نادى بها " فيرث" [٢] في النقد الغربي حيث ينظر إلى المعنى بوصفه مركبا من العلاقات السياقية التي تتجسد في موقف معين.[٣] ، ولا تتحقق إلا في سياق الحال والموقف

ومن يتدبر السبب يرى أن الأَوْلى في الشهادة التي هي وصية الموت توافر العدل، واختلف العلماء في شرط الملّة فانقسموا قسمين:

القسم الأول يرى أن آية المائدة محكمة، ومن ثم أجازوا شهادة أهل الذمة على وصية المسلم في السفر " وجعلوا هذا الحكم مخصوصاً بالوصية

---

(١) ينظر: البخاري: الجامع المسند الصحيح، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر – دار طوق النجاة – ط أولى ١٤٢٢هـ، ١٣/٤، وكذا: مقبل بن هادي الوادعي: الصحيح المسند من أسباب النزول، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط: رابعة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص٩١.

(٢) جون روبرت فيرث، لغوي بريطاني ت ١٩٦٠م

(٣) ينظر: جبريل محمد عثمان: نظرية السياق عند فيرث، مجلة العلوم الشرعية– الجامعة الأسمرية الإسلامية– كلية العلوم الشرعية بمسلاتة، أكتوبر ٢٠١٦م، ص٢٦٧

عند حضور الموت؛ لوقوع الضرورة إليه ولا يمتنع اختلاف الحكم عند الضرورات "[١].

القسم الثاني يذهب إلى: أن آية المائدة منسوخة بقوله تعالى " وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ" [٢] وبهذا فلا يجوز شهادة من كان على غير الملّة، وأهل الكفر ليسوا عدولاً.

ومما يرجح القول الأول:

١- أن حالة السفر إنما ضرورة يحملك عليها ضيق الوقت وقلة الاختيار.

٢- لا قسم مع شهادة العدول المؤمنين، فلمّا وقع القسم في الآية دل ذلك على جواز شهادة أهل الذمة مع القسم إن ارتبنا.

٣- الحبس بعد الصلاة، والمراد بها صلاة العصر مثلما ذكر أهل التفسير؛ وذلك لأن غير المسلمين من أهل الأديان يترقبون قبيل غروب الشمس، ويخصون هذا الوقت و"يعظمونه ويذكرون الله فيه، ويتوقُّون الحلف الكاذب وقول الزور، وأهل الكتاب يصلُّون لطلوع الشمس وغروبها"[٣].

٤- يعضد هذا القول أيضاً ما جاء من رواية الشعبي " أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بـ دَقُوقا[٤] هذه ولم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدما الكوفة، فأتيا الأشعري

---

(١) الكيا الهراسي: أحكام القرآن، تحقيق: موسى محمد علي – عزة عبد عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ثانية ١٤٠٥هـ، ١١٨/٣.

(٢) الطلاق الآية رقم ٢.

(٣) ابن قتيبة الدينوري: تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص٢١٩.

(٤) مدينة بين إربل وبغداد . ينظر: محمد عبدالمنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط ثانية ١٩٨٠م، ص٢٤٤، وينظر: الأعلام للزركلي ٣٣٠/٦.

فأخبراه، وقدما بتركته ووصيته... فأحلفهما بعد العصر بالله..." [١] وفي ذلك جواز شهادة أهل الذمة.

٥- غير واحد من العلماء فَقُه مسألة شهادة الذمي في الوصية حال السفر، وبَوَّب لها في مؤلفِة مثل الجصاص، وأبو داود في السنن، فالأول بوَّب للوصية بعنوان " باب الشهادة على الوصية في السفر"[٢] وأبو داود بعنوان "باب شهادة أهل الذمة في الوصية في السفر [٣] فدلَّ ذلك أيضاً على الجواز في الشهادة.

٦- ما ذهب إليه بعض العلماء من أن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً " حتى قال ابن عباس والحسن وغيرهما: إنه لا منسوخ فيها " [٤] وهذا شبيه ما جاء من أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها.

٧- قوله تعالى "أَو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ" من غير ملتكم وهذا قول ابن عباس وابن المسيب والثوري والأوزاعي وغيرهم [٥] وقد يكون من غير قبيلتكم، والوجهان مقبولان لأمور:

الأول: أن الآخَرَيْن من غير الورثة والقرابة لا منفعة لهما من صاحب الوصية، فتكون شهادتهما بذلك عادلة.

الثاني: أن الكلام في الشهادة حال السفر يضيق فيها الاختيار فيتسع فيها مجال التفسير لقبول الآخرين من غير ذوي القربى، ومن غير القبيلة، ومن ثَمَّ من غير الملَّة.

---

(١) أبو داوود السجستاني: سنن آل داوود، تحقيق شعيب الأرناؤوط و محمد كامل قرة – دار الرسالة العالمية – ط أولى ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩ م، ٤٥٧/٥.

(٢) أبو بكر الجصاص: أحكام القرآن، تحقيق عبدالسلام محمد علي شاهين – دار الكتب العلمية بيروت لبنان – ط أولى ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ٦١٣/٢.

(٣) سنن أبي داوود، ٤٥٧/٥.

(٤) الكيا الهراسي: أحكام القرآن ١١٨/٣.

(٥) ينظر: الجصاص: أحكام القرآن ٦١٣/٢.

الثالث: أن العدالة منصوص عليها في قوله " ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ" أي أنتم أيها المؤمنون المسلمون، أما حين السفر فقال تعالى " أَو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ " فالعدالة غير مشروطة – والله أعلم – لحكم الضرورة حال السفر، فجاز بذلك القول بشهادة أهل الذمة في السفر على الوصية.

أمّا قوله تعالى "اثنان ذوا عدل" ففيه نوعان من أنواع التلقي: دلالي وإعرابي:

فالدلالي: في لفظ "اثنان" أنه " يقتضي بمطلقه شخصين، ويحتمل رجلين، إلا أنه لما قال بعد ذلك " ذوا عدلٍ" بيَّن أنه أراد رجلين؛ لأنه لفظ لا يصلح إلا للمذكر، كما أن "ذواتا" لا يصلح إلا للمؤنث"[١].

والإعرابي: قوله تعالى " ذوا عدل" صفة لـ "اثنان" والقول بالصفة فكنَّ ذكورية الشخصين في شهادة السفر دون شهادة الأنثى؛ والموضع ليس مقام تفضيل ذكر على أنثى، وإنما المقام – هنا – يقتضي غالب الصحبة في السفر؛ إذ ليس من الشرع أن تصحب المرأة غير محرم.

فضلاً عن ذلك أن ما جاء في آية الدين في سورة البقرة[٢] من إشهاد إنما جاء على طريق التفصيل في الشاهدين، فنصَّ على الرجال في قوله "من رجالكم" فإذا تعذر الأمر تقوم المرأتان مقام رجل واحدٍ.

والتفصيل هنا في آية البقرة يقتضي الشهادة من دون تمكين الذكورية خلافاً لشهادة السفر.

كما أن آية البقرة نصَّت على شهيدين بلفظ المثنى من دون ذكر لفظ العدد، وفي هذا إيحاء بأن لفظ العدد يغلق دائرة القول ويحصر الإشهاد على اثنين، فلما لم يأت باللفظ في آية الدين دل ذلك على أن الشهيدين قد يكونان رجلين أو يكونان رجلاً وامرأتين فيكون حاصل الجمع ثلاثة، وبذلك يتنوع

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة – ط ثانية ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م – ٣٤٨/٦.

(٢) الآية رقم ٢٨٢.

الخطاب بين حالتي الديْن والسفر في الإشهاد مراعيا مسار التلقي إمكانا ومكانا من خلال العدد.

ثانياً: **الميراث**:

ضمت سورة النساء آيتين هما موضع الشاهد والحديث عن ثنائية العدد، الآية الأولى قوله تعالى "يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ..."(١) والآية الثانية قوله تعالى " فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ..." (٢).

مسار التلقي في الآيات جاء مبيناً حدود ونظام الإرث في الإسلام، وما يجب للورثة ذكوراً وإناثاً، جماعات وفرادى، كما جاء العدد "اثنتين" بصيغة المؤنث لبيان مقصود الآيات، فالذكر لا خوف عليه من حصوله مراده وحظه من الميراث، أمَّا الأنثى فقد جرت عادة القوم قديماً وحديثاً بمنعها من الميراث كلاًّ أو بعضاً أو حيلةً، فالمنع قديماً كان معمولاً به في الجاهلية و أبطله الإسلام، والمنع حديثاً لدى شريحة من الناس على حسب ما توهمته عقولهم من منعها نهائياً، أو بإعطائها بعض حقها، أو بإرضائها في صورة مبلغ من المال لا يعدل شيئاً من نصيبها العيني في الميراث.

وقد ثبت نصيب البنتين وهو الثلثان بعدة أمور:

١- السنة النبوية من طريق حديث جابر عن النبي - ﷺ- لابنتي سعد بن الربيع حين حكم لهما بالثلثين(٣).

٢- الإجماع من الصحابة والتابعين خلافاً لابن عباس.

٣- القياس على الأختين كما في آية الكلالة.

---

(١) النساء الآية ١١.

(٢) النساء من الآية ١٧٦.

(٣) ينظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، صححه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة بيروت ١٣٧٩هـ، ٢٤٤/٨.

"فوق اثنتين" جاء العدد – هنا – بعد الظرف الذي أفاد معنى الزيادة، أي: اثنتين فما فوقهما؛ لأن ذلك ما تقتضيه "قوة الكلام، وأما الوقوف مع اللفظ فيسقط معه النص على الاثنتين"(١) فقط.

والعدد في قوله تعالى "فوق اثنتين" إنما جاء لأغراض متعددة اقتضاها السياق وتنبه لها العلماء، ومن هذه الأغراض:

١- التأكيد.

٢- رفع الإيهام.

٣- إفادة حكم تفصيلاً.

فالتأكيد لأن فوق صفة لـ "نساء" في قوله "فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ"، وظاهر النص القرآني يذكر نصيب الثلثين فريضة الثلاث من البنات فصاعداً، وإنما فهم نصيب الاثنتين من آية الكلالة.

وأما رفع الإيهام فإن الحديث تدرج في ذكر نصيب الولد، وأن له مثل حظ الأنثيين، فيأخذ الثلثان وتأخذ البنت الثلث، فإذا كان معها أختها من دون ذكر حصلتا الثلثين، " ثم لما أوهم ذلك أن يزاد النصيب بزيادة العدد رد ذلك بقوله "فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ"(٢) رفعاً للإيهام الحاصل من أن زيادة عدد البنات تقابله زيادة في الأنصبة، فالفرض وهو الثلثان لا يزيد بزيادتهن على اثنتين.

ورفع الإيهام سَمَّاه الإمام الألوسي بـ "عدم التفاوت"، حيث أُلْحِقتْ البنتان بالجماعة " للتنبيه على عدم التفاوت بين عدد وعدد، والبنتان تشارك الجماعة

---

(١) عبدالرحمن الثعالبي: "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: أولى ١٤١٨هـ، ١٧٧/٢.

(٢) البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط أولى ١٤١٨هـ، ٦٢/٢، وكذا: الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ثالثة، ١٤٠٧هـ، ٤٨١/١.

في التعدد، وقد علم عدم تأثير القلة والكثرة، فالظاهر إلحاقهما بالجماعة بجامع التعدد"[١]، لا العدد وبذلك يكون اللفظ "اثنتين" غير دال على العدد بقدر دلالته على عدم التفاوت، ويبتعد عن مفهومه الحسابي.

ومن فائدة العدد في الآية – أيضاً – بيان الحكم مجملاً في موضع ومفصلاً في آخر، فالآية الأولى "فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ" أفادت تفصيل الحكم ما فوق اثنتين الذي جاء مجملاً في آية الكلالة "فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ" التي نصّت على نصيب الأختين فقط بالثلثين فصارت "كل واحدة من هاتين الآيتين مجملاً من وجه ومفصلاً من وجه"[٢].

فالأولى ذكرت نصيب الثلاث فصاعداً، والثانية ذكرت نصيب اثنتين فقط، وكذا فإن الأولى أجملت في الأختين، والثانية فصلت فيهما فدل ذلك على أن البنتين تأخذان الثلثين مثل الأختين بطريق الأولى لقربهما، وبُعد الأختين.

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي بيروت، ٢٢٢/٤.

(٢) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، ٥١٠/٩.

المبحث الثالث

ثنائية العدد في مسار تلقي القصص القرآني

القصص القرآني وُصِف في الكتاب العزيز بأنه أحسن القصص في حديثه عن الأنبياء السابقين- عليهم السلام، وحديثه عن الأمم وموقفهم من دعوات أنبيائهم، وقد تنوع العدد الثنائي في القصص القرآني بين لفظي "ثاني، واثنين" في مسارات عدة مثل:

- حديث القرآن عن هجرة النبي – صلى الله عليه وسلم – وحادثة الغار في سورة التوبة.
- الطوفان قال تعالى " قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ" (هود)
قال تعالى " فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ" (المؤمنون)
- الثمرات قال تعالى " جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ " (الرعد)
- أصحاب القرية قال تعالى " إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ" (يس).

فحديث القرآن عن حادثة الغار جاء التركيب "ثاني اثنين" في قوله تعالى " إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ " [(١)].

وهذا التركيب "ثاني اثنين" مثل قولك ثالث ثلاثة، ورابع أربعة، تركيب تقوله العرب أي: أحد الاثنين، وأحد ثلاثة، وأحد أربعة " [(٢)].

---

(١) التوبة آية رقم ٤٠.

(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والإعلام، ط أولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٤٦٣/١١، وكذا: القاسمي محمد جمال الدين: محاسن التأويل، تحقيق/ محمد باسل عيون السود – دار الكتب العلمية بيروت – ط أولى ١٤١٨هـ، ٢١٣/٤، وينظر: د. عبدالرحمن سعود إبداح: العدد في القرآن الكريم لطائفه ومسائله، دروب للنشر والتوزيع عمَّان – الأردن، الطبعة العربية ٢٠١٦م، ص ٩٧.

وتحقيق القول في التركيب أنه إذا حضر اثنان فكل واحدٍ منهما يكون ثانياً، فالنبي – صلى الله عليه وسلم – أحد اثنين، وكذلك أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – أحد اثنين أي: أحد هذه الأعداد مطلقاً من دون تعيين كونه الثاني أو الثالث أو الرابع.

وليس المقصود بالعدد اثنين – هنا – ترتيباً ورتبة، إنما قُصِد بالعدد في الآية مسار آخر في دلالته وتلقيه، وهو النَصْرُ، والعتابُ، وتخصيصٌ لتشريف.

فالنصر للنبي – ﷺ – وهو نصرُ ردٍ لا نصر تمكين، وذلك لأن النصر قسمان: " نصر الطامع في التمكين من العدو، ونصر المستضعف في رد العدو عنه "[1]، والحالة آنذاك كانت خروجاً وفراراً بالدين، فالآية من القسم الثاني وهو نصر المستضعف في رد العدو عنه.

والعتاب في الآية خطاب مقصود – أيضاً – يتلقاه الناس كافة في أنكم لم تنصروا رسول الله – ﷺ – الذي جاءكم على فترة من الرسل ليخرجكم من الظلمات إلى النور، فكأن العدد "ثاني اثنين" يحمل إعلاماً وعتاباً أن الله قد نصر نبيه – ﷺ – وتكفل به لـ " إعزاز دينه، أعانوه، أو لم يعينوه، وأنه قد نصره عند قلة الأولياء، وكثرة الأعداء "[2] فجاء التركيب "ثاني اثنين" معبراً عن قلة الناصر والمعين، وهو أقل الجمع.

أما التخصيص لغرض التشريف فقد جاء عن الشعبي قوله: "عاتب الله أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر "[3].

فالله – ﷻ – قد خص أبا بكرٍ بصحبة النبي – ﷺ – تشريفاً له، وجاء التعبير بلفظ "اثنين" ليوحي بعدة أشياء منها:

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ٣٣٧/١.

(٢) ابن عادل: اللباب في علوم الكتاب، ٩٤/١٠.

(٣) ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبدالرازق المهدي، دار الكتاب العربي بيروت ط أولى ١٤٢٢هـ، ١٦٠/٢.

١- أن أبا بكر كان ثاني اثنين في الدعوة إلى دين الله تعالى فأسلم معه خلق كثير من الصحابة – رضوان الله عليهم – أمثال " عثمان بن عفان – الزبير بن العوام – طلحة بن عبيد الله ".

٢- أنه كان ثاني اثنين في الهجرة من مكة إلى المدينة.

٣- أنه كان ثاني اثنين في المحافل والغزوات يلازمه ويخدمه.

٤- أنه كان ثاني اثنين في الإمامة الصغرى والكبرى.

ومن لطائف الإشارات التي يوحي بها العدد في الآية خصيصة "ثاني اثنين" لـ "أبي بكر" في التصاقه بالنبي – ﷺ – في الحياة وفي الممات، فاسمه لم يفارق اسم النبي – ﷺ – " إذ كان يقال له خليفة رسول الله"، حين توفي فقيل لمن بعده – وهو عمر "رضي الله عنه": أمير المؤمنين، وانقطعت خصيصة "ثاني اثنين"[(١)].

ولما مات أبوبكر – رضي الله عنه – دفن بجوار النبي – ﷺ – فكان ثاني اثنين.

وتعيّن إعراب "اثنين" في قوله "ثاني اثنين" مضافاً إليه مجروراً وعلامة جره الياء، وثاني منصوب على الحال من المفعول "الهاء" في قوله تعالى "أخرجه" وقولي بالتعيين –هنا– لسببين:

أولهما: أن لفظ "ثاني" اسم فاعل مشتق من العدد أريد به واحد من ذلك العدد وهذا الاستعمال يضاف إليه العدد الموافق له مثل "ثاني اثنين – ثالث ثلاثة وهكذا... [(٢)]، ويستنبط من هذا عدم جواز إطلاق هذا الاستعمال في حق الله تعالى " لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ "[(٣)] وجاز إطلاقه في حق البشر.

---

(١) الصرصري الحنبلي: الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، تحقيق محمد حسن محمد، دار الكتب العلمية بيروت لبنان – ط أولى ١٤٢٦ هـ/٢٠٠٥م، ص ٣١٥.

(٢) يراجع: إبراهيم الأبياري: الموسوعة القرآنية، مؤسسة سجل العرب، ط ١٤٠٥هـ، ١٢٤/٣، وكذا: السمين الحلبي: الدر المصون، ٥١/٦.

(٣) سورة المائدة آية رقم ٧٣.

ثانيهما: أن الاسم المشتق من العدد لا يجوز تنوينه إذا أريد به واحد من ذلك العدد، فلا نقول: ثالثٌ أو رابعٌ في تركيب "ثالث ثلاثةٍ" و "رابع أربعةٍ". "ولذلك منع الجمهور أن ينصب – أي العدد – ما بعده بأن يقال: ثالثٌ ثلاثةً، ورابعٌ أربعةً " [١] ؛ لأن "ثاني – وثالث ورابع" معناه أحد اثنين وأحد ثلاثة وأحد أربعة " فلا معنى للفعل فيه، وليس بمنزلة هذا ثالثٌ اثنين، لأن فيه معنى الفعل "[٢] صار، أي: يُصَيّر الاثنين ثلاثة، ومثله: هذا رابعٌ ثلاثة، أي: صيّر الثلاثة أربعة بنفسه، ومن ثمّ جاز التنوين في هذا الموضع، وكان للسياق دوره في التعيين الإعرابي في قوله "ثاني اثنين".

حديث القرآن عن الطوفان في قصة سيدنا نوح عليه السلام:

جاء الشاهد في سورتين هما هود والمؤمنون، قال تعالى " حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ " [٣].

وقوله تعالى " فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ" [٤].

فآية سورة هود وردت كلمة "اثنين" لترسيخ المبادئ " التي تقيم في الإنسان بناءً أخلاقياً، حيث كانت سفينة نوح – عليه السلام– هي منجاة العقيدة والإيمان الذي يرضى عنه الله عز وجل" [٥].

---

(١) تفسير أبي السعود، ٦٦/٤.

(٢) الأبياري: الموسوعة القرآنية، ١٢٤/٤.

(٣) سورة هود الآية رقم ٤٠.

(٤) سورة المؤمنون الآية رقم ٢٧.

(٥) د. علي علي صبح: التصوير القرآني للقيم الأخلاقية والتشريعية – المكتبة الأزهرية للتراث – ص٢٨٦.

فضلاً عن أن ثنائية العدد توحي بتجدد الحياة البشرية بعد الطوفان، وهذه الحياة البشرية والكونية لن تكون إلا بتمثل اثنين واجتماعهما، بل اقترانهما كي تتجدد الحياة وتستمر.

قرأ حفص " مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ" بالتنوين، وقرأ الباقون " مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ" بالإضافة(١).

وتوجيه القراءتين الخطاب القرآني يتمثل في أن القراءة الأولى لحفص بالتنوين تكون كلمة "اثنين" تأكيداً للمفعول به "زوجين"؛ لتدل العلامة–هنا– على أن المحمول ذكر وأنثى من كل شيء، فلا يمكن الاستغناء عن واحد منهما في مسيرة الحياة وتكاثر الأمم، ولا تزد عن اثنين.

أما القراءة الثانية فجاءت بالإضافة " مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ" وبذلك تكون كلمة "اثنين" مفعولاً به، والمعنى: فاحمل اثنين من كل زوج، ومن هنا تقع كلمة اثنين موقعها في القراءة الثانية لتدلل على أمرين:

الأول:" بيانٌ لئلا يتوهم أن يحمل كل زوجين واحداً منهما، لأن الزوج هو واحد من اثنين متصلين"(٢).

الثاني: شمولية الأزواج لجميع المخلوقات من حيوان ونبات.

فالقراءات القرآنية عنصر مكمل لنوع مهم من أنواع التلقي وهو التلقي اللغوي، وهذا جلي في تغير موقع الكلمة إعرابيا؛ لأن الإعراب يعد "من القرائن السياقية التي تساعد على توضيح المعنى بتضافرها مع غيرها" (٣) فيكتمل السياق بالتوجيه الدلالي للكلمة.

---

(١) ينظر: أبو زرعة عبدالرحمن بن محمد: حجة القراءات، تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الرسالة، ٣٣٩/١، وكذا: ابن خالويه: الحجة في القراءات السبع، دار الشروق بيروت، ط رابعة، ١٤٠١هـ، ص١٨٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٧٢/١٢.

(٢) عواطف كنوش المصطفى: الدلالة السياقية عند اللغويين، دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع_ لندن– ط أولى ٢٠٠٧م، ص ٦٢

وتأتي آية سورة "المؤمنون" لتوضح جانباً آخر في القصة من خلال السياق فالخطاب القرآني يحكي ما كان قبل حدوث الطوفان فبدأت الآية بـ "فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ" وكأن الأمر منصب على الصناعة والتجهيز للسفينة، فلا يحزنك الذين يتهمونك بالجنون ويتربصون بك مكذبين ومنكرين، لأنهم حينئذ مغرقون.

بخلاف آية هود إذ كان الخطاب وقت حدوث الطوفان فاحتيج إلى بيان تفصيل في الحمل: زوجين من كل شيء " أهلك ومن آمن ".

وورود القصص القرآني في سورتي هود والمؤمنون وكلتاهما تنتمي إلى العهد المكي فيه دلالة على أن تلقي الخطاب أريد به وجهان:

وجه التسرية عن النبي–ﷺ– وأنه لم يكن بدعا من الرسل، والوجه الثاني وجه التحدي لهؤلاء القوم الذين يدعون الأساطير في القرآن الكريم، فجاء القصص القرآني متحديا " النص الموازي/ الأسطوري الذي تمثل بمحاولات النضر بن الحارث وكان ذلك في المرحلة المكية"[(١)] فالنص الموازي يتمثل في المحاولات التي قام بها بعض القوم من الإتيان بمثل هذا القرآن أو بسورة من مثله.

وعلى كلٍ فإن سياق الخطاب في الآيتين قد جمع المخلوقات في نوعية الحمل فقال تعالى "زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ" "من غير البشر، وإلا فإنه أدخل فيها من البشر سبعين أو ثمانين، فأدخل من هذا النوع زيادة على اثنين"[(٢)]، وذلك لأنه عطف الأهل على اثنين، ولو قصد العدد لأدخل الأهل في زوجين اثنين.

وزيادة في الأمر فإن المشهد القرآني تدرج في المحمول على السفينة تدرج تفصيل وبيان، فآية سورة المؤمنون ذكر الأهل بعد زوجين اثنين، وفي

---

(١) جعفر شنان حسن وآخران : مسارات التلقي للقصة القرآنية عند القدامى، المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد ١٤– أغسطس ٢٠٢٠م، ص ٤٤

(٢) محمد صديق خان: فاتح البيان في مقاصد القرآن، راجعه: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري – المكتبة العصرية للطباعة والنشر – صيدا بيروت – ط ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ٩/١١٤.

سورة هود ذكر الأهل والذين آمنوا معه بعد زوجين اثنين، فمقصود حمل المخلوقات تقييده بـ "اثنين" ومقصود حمل الأهل والذين آمنوا نجاتهم ومكافأتهم على إيمانهم واتباعهم ونصرة نبيهم، وليس المقصود هنا – العدد أو تقييده.

ومما ناسب التفصيل والإجمال في السورتين قوله "احمل–اسلك" حيث جاءت قصة نوح في سورة هود مستغرقة الأحداث في خمس وعشرين آية، وثمان آيات فقط في سورة المؤمنون، فالتفصيل ناسبه لفظ "احمل" اتساعاً وشمولاً من الإعداد والتهيئة والركوب، والنزول، والإجمال ناسبه لفظ "اسلك"، "فاقترن بكل من المكانين ما اقتضاه القصد من زيادة بيان أو اختصار كلام"(١) مثل حمل المخلوقات والأهل والذين آمنوا في سورة هود، واقتصارها على المخلوقات والأهل في سورة المؤمنون حيث كان الحديث مبسوطاً لبيان حال الذين لم يؤمنوا فذكر حالهم ومآلهم.

حديث القرآن عن الثمرات في سورة الرعد:

قال تعالى: "وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"(٢).

خطاب التلقي في الآية دعوة للتفكر والتدبر للوقوف على مدى طلاقة القدرة، وجلالة الحكمة، وعظمة الخالق جلّ شأنه، وأن الله الذي أنزل القرآن على نبيه – ﷺ – هو الذي رفع السماء، ومدّ الأرض، وسخّر الشمس والقمر، وأخرج من كل الثمرات.

ولقد جاءت جملة " زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ" عقب قوله "وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ" للدلالة على الأصناف المختلفة فهي هنا للتنويع، أو أريد بها اختلاف الطعم والحجم

(١) الخطيب الإسكافي: درة التنزيل وغرة التأويل، تحقيق محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، ط أولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٩٣٩/١.

(٢) الرعد الآية رقم ٣.

واللون، فمنها الحلو ومنها الحامض، والكبير والصغير، والحار والبارد، والأخضر والأصفر...، وهذا التنوع مما يوافق أذواق البشر.

ولما كان الماء سبباً في إخراج الثمر ناسب مجيء الثمرات عقب قوله "وأنهاراً"، ثم تأتي مناسبة أخرى وهي الجمع بين المختلفين بعد قوله " جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ" على سبيل التفصيل، فالذي أنبت الثمر مختلفاً ألوانه وأحجامه قادر كذلك على الإحياء مرة أخرى.

ولفظ "اثنين" في الآية ناسب ما جاء في سياق السورة من جملة ثنائيات متمثلة في السماء والأرض، الشمس والقمر، الليل والنهار، صنوان وغير صنوان، وهنا ملمح بليغ؛ لأن الثنائية جمع الزمان والمكان بما يحويه، فإن الله تعالى – جلّت قدرته": "يتصرف في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان"[(١)] وهذا لبيان استغراق القدرة حدود الزمان والمكان.

ولفظ "زوجين اثنين" مختلف في مراده هل يقصد به التنويع والأصناف أو يقصد به ذكر وأنثى في الثمرات ؟

فريق منهم ابن عرفة يستبعد مقصود الذكر والأنثى قائلاً: " والصحيح أن المراد بالزوجين نوعين[(٢)].

وفريق آخر يرى أن المراد بالزوجين الذكر والأنثى، فالكائنات الحية تنقسم إلى ذكر وأنثى في الحيوان والنبات "وقد يكون الذكر والأنثى في الزهرة الواحدة أو الشجرة الواحدة أو في شجيرات، ويتم التلقيح إما بالريح أو الطير"[(٣)].

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمد حسين شمس الدين – دار الكتب العلمية – منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط أولى ١٤١٩هـ، ٣٦٩/٤.

(٢) تفسير ابن عرفة، تحقيق: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط أولى ٢٠٠٨م، ٤١٦/٢.

(٣) حامد صادق قنيبي: مملكة النبات كما يعرضها القرآن ويصفها، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة الحادية عشرة – العدد الثالث ربيع أول ١٣٩٩هـ، ص١١٦.

وجات صيغة "زوجين اثنين" في ثلاثة مواضع " هود – المؤمنون – الرعد" مع اختلاف مسار التلقي بين سورتي هود والمؤمنون وبين سورة الرعد في الحديث عن قصة نوح عليه السلام وعن الثمر.

وكأن الجامع بين الآيات الثلاث بصيغة "زوجين اثنين" هي الحياة وانبعاثها، فكما كانت سفينة نوح انطلاقة ثانية للحياة بعد الطوفان كان نزول المطر وتفجر الأنهار في الأرض انطلاقاً وإيذاناً لحياة جديدة للنبات بعد جدب وموات، هذه الحياة تتطلب زوجين: ذكراً وأنثى، أو نوعين لاستمرارها، وبيان قدرة الخالق–عز وجلّ– ومن ثمّ وقع الطلب في النبات والثمر مثلما وقع في الحيوان والبشر.

حديث القرآن عن إرسال الرسل لأصحاب القرية في سورة يس:

قال تعالى " وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ"(١).

قليل أن يجتمع ثلاثة رسل في زمان ومكان واحد لقرية واحدة، أمَّا الاثنان فقد وقع اجتماعهما مع موسى وهارون عليهما السلام – والعجيب أن أمر التكليف بإرسال رسولين أو ثلاثة إنما وقع في بني إسرائيل !

وهذا إن دلَّ فإنما يدل على إصرار وعناد، وقساوة أكباد، وما كانت الزيادة إلا اشتداد الحجة عليهم.

ومن نافلة القول التنويه بعدم الخوض في اسم القرية، ولا الوقوع في الخلاف من أن الرسولين من قِبل عيسى– عليه السلام– أو هما من قِبل الله تعالى، وإن كان اللازم والظاهر أنهما من قِبل الله ﷻ.

وكل ما خلا العدد – في الآية – غير واجب في القصة، وليس مطلبا في مسارات التلقي، وإنما الدلالة –هنا– للعدد، إذ المقصود تقوية الحق وتأييده؛ لأن الكلام عن اسم القرية ليس مطلوباً بقدر بيان ردود أفعالهم على

(١) الآيتان ١٣،١٤ من سورة يس .

صدق الرسل، فقد يصدق هذا الأمر على قرى كثيرة تأتيهم رسلهم بالبينات، فما كان منهم إلا الإعراض والتكذيب، وهذا ملحظ العبرة وتمام العظة.

" إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ" الخطاب يوحي بأمرين: الأول: معرفة أحوال وطبائع المرسل إليهم.

والثاني: إرسال رسولين بادئ الأمر فيه معنى الإشهاد على هؤلاء القوم، فكأنهما قاما مقام الشاهدين في الأحكام.

ومن جملة ما يحمله التلقي اللغوي في الآية قوله تعالى " فَعَزَّزْنا" بالتشديد وهي قراءة الجمهور " وقرأ شعبة " فَعَزَزْنا" بتخفيف الزاي الأولى[1]. فالمعنى على التشديد " فَعَزَّزْنا": قوّينا وزدنا، والمعنى على التخفيف " فَعَزَزْنا": غلبنا؛ " وليس تغلبنا في هذا الموضع كثير معنى " [2].

وهذا ما أرجحه لأن المقام مقام إرشاد وتأليف القلوب، وإن كان من زيادة عدد الرسل فهو من إقامة الحجة، لا من الغلبة والله –تعالى– أعلم.

(١) عبد الفتاح القاضي: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان، ص ٢٦٥، وينظر: محمد بن أحمد الأزهري الهروي: معاني القراءات، مركز البحوث في كلية الآداب – جامعة الملك سعود – ط أولى ١٤١٢هـ،١٩٩١م، ٣٠٤/٢ وما بعدها.

(٢) تفسير الطبري ٥٠١/٢٠.

المبحث الرابع

ثنائية العدد في تلقي حديث القرآن عن القرآن الكريم

وصف الله ﷻ القرآن الكريم بأوصاف متعددة، فهو كتاب مبارك، ومبين، ونور، وهدى، ومن جملة ما وُصِف به القرآن الكريم صيغة العدد "مثاني".

والمثاني واحدتها "مَثْناة" وهي كل شيء يثنى فيصير اثنين، والمثناة مؤنث "مَثْنَى".

وتأول العلماء المراد بالمثاني فتعددت الآراء لكنها لم تتعارض، بل دارت جميعها في مضمار الخاص والعام، ومن هذه الآراء أن المثاني قصد بها سورة الفاتحة لقوله تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ"(١).

ورأي يقول: إن المثاني قصد بها القرآن كله لقوله تعالى "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ"(٢). فالقول بتأول المثاني أنها الفاتحة لأسباب:

١- سميت الفاتحة مثاني لأنها تثنى في كل ركعة من الصلاة.

٢- مثاني لأنها نزلت مرتين "إن صح أنها نزلت بمكة حين فرضت الصلاة، وبالمدينة حين حولت القبلة"(٣).

٣- مثنى لأن نصف الفاتحة الأول ثناء للرب من العبد، والنصف الآخر عطاء من الرب للعبد.

٤- مثاني مشتقة من الثناء، والفاتحة مشتملة على ما هو ثناء على الله ﷻ.

---

(١) سورة الحجر الآية ٨٧.

(٢) الزمر الآية ٢٣.

(٣) تفسير البيضاوي ١/٢٥.

٥- مثنى من معانيه التكرار، والفاتحة مثاني؛ لأن أكثر كلماتها مثنى "الرحيم، الرحمن، إياك، الصراط".

أمَّا القول: إن المثاني قصد بها القرآن كله، فذلك لاعتماد أصحاب هذا القول على:

١- وصف آية الزمر للقرآن بالمثاني؛ لأن الوصف في معرض الكلام عن أحسن الحديث، وأحسنه كلام رب العالمين وهو القرآن الكريم؛ لأنه متشابه في الائتلاف ومثاني تثنى فيه القصص والأنباء والأحكام.

٢- أن العطف في آية الحجر للتفسير "وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ" وعلى هذا القول " رأى بعض أهل العلم أن المراد بالمثاني: القرآن"[١] بوصف الفاتحة داخلة من جملة القرآن الكريم، ومن ثَمَّ تكون الصورة من باب عطف العام على الخاص.

قال حسان بن ثابت:

مَنْ لِلقوافي بعد حسّانَ وابْنِهِ * ومَنْ للمثاني بعد زيدِ بن ثابتِ**[٢]

والمراد بالمثاني في البيت- القرآن الكريم.

والمتأمل للفظ " المثاني في آيتي الحجر والزمر يجده في سياق التفضيل والتعظيم والحسن، فالتفضيل حين قال تعالى "آتيناك " والتعظيم حين كان وصفاً للقرآن فقال " وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ " والحُسن حين جاء بصيغة أفعل "أحسن الحديث كتاباً...."

ومن مظاهر هذا التفضيل وذلك التعظيم ما يأتي:

١- التكرار والترديد: سواء أكان التكرار في اللفظ، أم في القصص والأنباء والأحكام، بل إن التكرار يمتد إلى المعاني الزاكية، والأخلاق الفاضلة

---

(١) د. محمد علي أبو زيد: الحكم البلاغي للمحكم والمتشابه في مجال التعبير للعدد القرآني، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق (د.ت) ص٥١٧.

(٢) البيت من الطويل ينظر: ديوان حسان بن ثابت، شرح وتعليق عبد مهنا، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط ثانية ١٤١٤هـ،١٩٩٤م، ص٤٨.

التي تمد القلوب بالحياة وتسل سخيمتها، فترداد القرآن" بمنزلة الماء لسقي الأشجار فكما أن الأشجار كلما بَعُد عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت وأثمرت"(١). وهذا حال القلوب مع القرآن وتعاهده بالتكرار.

ويستنبط الزمخشري مزية أخرى للتكرار وهي أن "النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرر عليها عوداً على بدء لم يرسخ فيها، ولم يعمل عمله "(٢).

٢- الإشارة اللطيفة التي تفهم من خطاب التلقي للفظ "مثاني" تدل على مقصود معين هو "وحدانية الله تعالى، وهذا ملمح عجيب أرشدنا إليه الإمام الفخر الرازي حين قال: "والمقصود منه بيان أن كل ما سوى الحق زوج، ويدل على أن كل شيء مبتلى بضده ونقيضه، وأن الفرد الأحد الحق هو الله سبحانه"(٣).

فكل ما في الكون يتطلب شيئاً إما بالاجتماع وإمّا بالضد، فالاجتماع مثل الزوجين الذكر والأنثى، واللوح والقلم، والضد مثل الظلمة والنور، والجنة والنار.

وكأن مظاهر وحدانية الله ﷻ- مستنبطة من مفردات هذا الكون، فاحتياجنا دليل على غناه، واجتماعنا دليل على تفرده عز وجلّ.

٣- أن القرآن الكريم قد بلغ الحسن فصاحة، والكمال بلاغة، وترديد القرآن بتلاوته صفة من صفاته وهي "المثاني"، لذا فإن" الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة لايزال غضاً طرياً، وغيره من الكلام

(١) تفسير السعدي، ٧٢٢.

(٢) الكشاف ١٢٣/٤.

(٣) مفاتيح الغيب ٤٤٦/٢٦.

ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه، يمل مع الترديد، ويُعَادى إذا أعيد"[١].
فكل مكرور يملّ إلا كلام رب العالمين، وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن.

فضلاً عن ذلك أن القرآن الكريم لا تفتح مغاليق أسراره بالقراءة الواحدة، فكلما ازداد الإنسان تلاوة برز له من وجوه الفهم ما لم يكن في سابقتها.

٤- أن المثاني تكرار، وهذا في وصف الكتاب العزيز دليل إحكام وإتقان بالرغم من أن التكرار في كلام البشر معيب ونقصان، أما القرآن الكريم " إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها حتى تكاد واحدة تنسِّي في البيان صاحبتها، وتناصف في الحسن وجه مقابلتها، ولا نفور للنفوس من ترديدها، ولا معاداة لمُعادِها"[٢].

فإنك إن جئت بكاتب ليعيد لك مشهد القص الذي خطه قلمه من قبل لتفاوتت عباراته قوةً وضعفاً، وتماماً ونقصاً، وائتلافاً واختلافاً.

٥- أن التكرار وإن كان من جملة المقاصد لكتاب الله تعالى إلا أنه مقصود ومكنًّى عنه بمادة التثنية. ولماذا مادة التثنية على وجه الخصوص؟

لأن التثنية أول مراتب التكرير كما يقول الطاهر بن عاشور[٣].

٦- أن من مستتبعات تلقي الخطاب داخل السياق في آية سورة الزمر قوله تعالى " مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ"، فحصول القشعريرة واللين على تراتبهما في دقة التعبير القرآني؛ لأن من كان هذا حاله فإن أول ما يلقاه قشعريرة الجلد

(١) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان (د.ت)، ٢٧٦/١.

(٢) المرجع السابق ٢٦٤/١.

(٣) التحرير والتنوير، ٣٨٦/٣.

"لضعف الحال أو قوة سطوة الوارد، فإذا أدمت سماعه، وألف أنواره تلين جلوده فيتأثر منه القلب فيطمئن إليه فتنقلب النفس الأمَّارة مطمئنة"(١).

فالأمر الظاهر تناسبه قشعريرة الجلد، والباطن يناسبه لين القلب، وكلاهما تابع للمثاني وهو التكرار؛ لأنه سبب في الحصول.

٧- اتساع الدلالة لمناسبة مسار التلقي في تعديل الفعل بحرف جر لفعل آخر، مثل تعدية الفعل "لان" بحرف الجر "إلى" في قوله تعالى " ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ". فيقال هو في لَيَانٍ من العيش أي: في نعيم، ولكن الفعل تعدى بـ "في" "تلين....إلى" وهذه طريقة من طرق البيان و " اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف والآخر بحرف، فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذاناً بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر(٢).

مثال قوله تعالى "أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ" فالرفث يعدى بالباء أو مع تقول: رفثت بالمرأة ومعها، لكن لمَّا كان الرفث بمعنى الإفضاء عدِّي بحرف الجر" إلى" وشبيه بهذا الأمر آية الزمر " ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ...إلى" حيث جاءت كلمة "تلين" في معنى" سكنت" واطمأنت فعُدِّيتْ بحرف الجر إلى أي: سكنت واطمأنت إلى ذكر الله.

والمتأمل في الآيات يجد مناسبة لمجيء كلمة "تلين" موضع سكنت أو اطمأنت لأمرين:

الأول: أن الآية السابقة لها فيها قوله: " فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ" فقوبلت القسوة باللين.

---

(١) الطيبي: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، تحقيق: إياد محمد الغوج الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم – ط أولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ٣٧٣/١٣.

(٢) ابن جني: الخصائص، ٣٨/٢.

الثاني: أن لين القلوب مناسب لشرح الصدر للإسلام، فإذا ما استقر الإيمان في القلوب ناسبه لفظ الاطمئنان كما في قوله تعالى " الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ".

٨- لما جاء الخطاب بلفظ المثاني وصفاً للقرآن الكريم في سورة الزمر كان ذلك مناسباً للموضوع العام في السورة؛ لأن الحديث عن القرآن موضوع رئيس، فجاء بدلالات متنوعة منها دلالة بلفظ التنزيل في أول آية من السورة " تَنْزِيلُ الْكِتَابِ" ودلالة بلفظ الكتاب في الآيات (١، ٢، ٢٣)، ودلالة بلفظ القول في آية " الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ" ودلالة بلفظ "الذكر – الهدى – الصدق – التلاوة" وأخيراً بلفظ صريح قال تعالى " وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" وقوله " قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ".

وهذا من عجيب تعدد أوصاف القرآن الكريم في سورة واحدة ودلالة ذلك لرفع العجب أن القرآن تنزيل وصف بالقدسية، والكتاب والذكر دلالة على جمعه وكتابته وحفظه، والقرآن دلالة على تلاوته، وكل هذه الدلالات فيها وصف المثاني الذي هو التكرار.

المبحث الخامس

ثنائية العدد في مسار تلقي العدول

من باب المشاكلة فقد عدلتُ عن تسمية المبحث بمصطلح" الانزياح" المستخدم في مجال الدراسات النقدية، وآثرت لفظ العدول، لشيوعه في الدرس النقدي والبلاغي لدى النقاد العرب.

وأعني بالعدول: العدد المعدول، فـ مثنى معدول عن اثنين اثنين ومسار العدول هذا ليس تشريعياً ولا تعبدياً، وإنما هو فني أو أسلوبي، عدلتُ به عن الموضوع؛ كي يناسب الطرحُ عنوان المبحث، ثم إبعاد المتلقي عن شتات الأمر فيه، فالآيات التي تندرج تحت سياق العدول تتشعب في ثلاثة أودية هي نكاح اليتامى، وبيان مظاهر قدرة الله تعالى، والتفكر في صدق دعوة النبي – ﷺ–.

ومن ثم يكون جمعها تحت "العدول" دفعاً للتكرار، فضلاً عن الشتات.

والآيات على تراتبها هي:

– قوله تعالى " وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ"(١).

– وقوله تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ"(٢).

– وقوله تعالى: "قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ"(٣).

وترتيب الآيات – هنا – يتطلبه مسار التلقي، حيث جمعتُ آيتي النساء وفاطر لاتحاد الجملتين " مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ"، وإن اختلف موضع الشاهد فيهما، ثم ختمتُ بآية سبأ وإن كانت سابقة على آية فاطر في ترتيب المصحف؛ وذلك لمجيئها على خلاف النظم القرآني في التقديم والتأخير، وهذا ما سيناقش فيما يلي:

---

(١) سورة النساء من الآية ٣.

(٢) سورة فاطر من الآية ١.

(٣) سورة سبأ الآية ٤٦.

فلفظ "مثنى" معدول عن اثنين اثنين، ومثله ثلاث ورباع ضمن أحكامه: أنه مصروف؛ لأنه معدول مثل عمر من عامر، كما أنه لفظ "يجري على المذكر والمؤنث جرياناً واحداً"(١)، ووقع حالاً في قوله تعالى " فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى..."، ومثله في قوله تعالى: " أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى"، كما وقع صفة في قوله تعالى: "أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ".

قال الشاعر:

ولكِنَّمـا أهْلِي بِـــوادٍ أنِيسُهُ ... ذِئابٌ تَبَغّى الناسَ مَثْنَى ومَوْحَدُ(٢)

فمثنى وموحد صفتان للذئاب التي تطلب الناس لتأكلهم في وادٍ لا أنيس فيه.

والبدء بذكر الاثنين في صفة الأجنحة لكونها الأصل، فضلاً عن "أنهما بمنزلة اليدين، ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل"(٣)، هذا ما ذكره الزمخشري من الأصل والزيادة التي هي عون على الطيران، وإن كنت أرى ذكر العدد لا يتعلق بالقدرة على الطيران وزيادته، وسرعته، بقدر تعلق العدد في الآية بملحظ جمالي للملائكة، فالجناحان جميلان، فأجمل منهما الثلاثة، وكلما سَمَتْ مكانة الملك زاد عدد الأجنحة، فرئيس الملائكة والمبلغ عن ربه – عز وجل – إلى أنبيائه – جبريل عليه السلام– له ستمائة جناح كما ورد في الحديث المتفق عليه من "أن النبي – ﷺ– رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح"(٤)، فكأن الزيادة هنا بحسب الرتبة والمنزلة.

ويتفرع عن الحديث النبوي مسار آخر للعدد المعدول وهو أن ذكر العدد جاء في مقام ثناء وبيان قدرة مع طلاقتها من بداية "الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ

---

(١) ابن عادل: اللباب ١٦٣/٦.

(٢) البيت من الطويل وهو لساعدة بن جؤية الهذلي من قصيدة يرثي بها ابن أبي سفيان، وقيل: يرثي بها ابنه. ينظر: ديوان الهذليين، تعليق: محمد محمود الشنقيطي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ٢٣٧/١.

(٣) الزمخشري: الكشاف ٥٩٥/٣.

(٤) صحيح البخاري، "بدء الخلق"، وصحيح مسلم باب الإيمان.

وَالْأَرْضِ" إلى قوله "يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ"، فدل العدد في قوله "أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ" على التكثير والتنوع، بل والتفاوت في الرتبة، فهو وصفُ لبيان الكثرة لا حصرها أو تعيينها.

فآية النساء " فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ" فإن حرف "الواو" له دور في دلالة العدد، فقيل: إنها للجمع، وقيل: إنها بمعنى "أو"، وقيل: إنها للبدل، فهي ليست للجمع، بل " دالة على تفرق الأنواع، وتجنيس المباح من الزوجات، فمن تزوج مثنى لم يضم إليهما ثلاثاً، وكذلك من تزوج ثلاثاً لم يضم إليهن أربعاً"[(١)]؛ لأنه إن فعل ذلك لضم إلى الاثنين ثلاثاً فصاروا خمساً، أو ضم الثلاث أربعاً فصاروا سبعاً.

وهذا كلام فيه نظر، وإن كان صحيحاً من جهة ذكر العدد على أصله كأن تقول: تزوج اثنتين وثلاثاً وأربعاً.

لكن العدد هنا معدول عن اثنين إلى مثنى، وعن ثلاث إلى ثُلاث، وعن أربع إلى رُباع، وهذا العدول يرفع توهم الجمع بين الاثنين والثلاث والأربع، وبذلك تسلم الواو في الآية بين مطلق الجمع وإن كان الخطاب للجميع، فإن من الناس يصلحه نكاح الأربع ويعدل بينهن، ومنهم من يعدل في نكاح الثلاث وإلا نكح الاثنتين، ومن لم يستطع اكتفى بواحدة.

أما القول بمعنى "أو" فلا حاجة لنا في تأويل الواو بـ "أو" لأنه لو جاز القول بذلك " لجاز أن لا يكون الثلاث لصاحب المثنى، ولا الرباع لصاحب الثلاث..." [(٢)] بخلاف الواو التي تفيد إباحة العدد "مثنى وثلاث ورباع" لكل واحد داخل في الخطاب القرآني، فالأربع مباح للفرد ومباح له أيضاً الثلاث وكذا الاثنين والصورة أن كل عدد في الآية داخل في العدد الذي يليه"، إذ لم

---

(١) النيسابوري: التفسير البسيط، تحقيق: جامعة الإمام محمد بن سعود، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة، ط أولى ١٤٣٠هـ، ٣٠٢/٦.

(٢) الكيا الهراسي: أحكام القرآن، /٣١٨.

يثبت أن كل واحد من الأعداد مراد مع الأعداد الأخر على وجه الجمع فيكون تسعة"[١].

ولكن المثنى داخل في العدد ثلاث، والثلاث متَضمِّن في الأربع فيكون الجميع أربعاً. والخلاف في حرف "الواو" لا يخرج الكلام عن مراد التلقي في أن هذا العدد في حق الأحرار من دون العبيد.

أمَّا آية سبأ في قوله تعالى "مَثْنَى و فُرَادَى" فإن النظم القرآني فيها جاء في صورة التقديم والتأخير مع مراعاة العدول أيضاً.

فالآيتان السابقتان في سورتي النساء وفاطر ورد العدد فيها على نسق ما قرره العلماء من اهل اللغة في باب العدد من أن" كل مرتبة هي أدنى من الأخرى فهي متقدمة على ما فوقها"[٢] وهذا ما سماه ابن الزَّمْلكاني، ويحيى بن حمزة العلوي بـ التقدم بالذات[٣] وسماه صلاح الدين خليل بـ التقدم بالطبع[٤] فيكون العدد "مثنى وثلاث ورباع" متقدماً بالذات؛ لأن كل رتبة تتركب مما قبلها من العدد.

بيد أن الأمر قد اختلف، وأن العدد لم يكن مطرداً في تقدمه بالذات، والدليل في هذا قوله تعالى " قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى" إذ جاء العدد خلاف ما قرره العلماء، ففي الآية تعليلان:

الأول: لم جاء العدد مفرداً بواحد واثنين؟

الثاني: لم عُدِل عن ترتيب العدد ؟

---

(١) المصدر السابق ٣١٨/٢.

(٢) ابن الزَّملكاني: التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، طبعة العاني بغداد، ط أولى ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م، ص١٤٨

(٣) ينظر: التبيان لابن الزملكاني ص١٤٨، وكذا: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – المكتبة العصرية بيروت– ط أولى ١٤٢٣هـ،٢٤/٢.

(٤) ينظر: صلاح الدين خليل بن كيلكلدي: الفصول المفيدة في الواو المزيدة: تحقيق د. حسن موسى الشاعر، دار البشير – عمان – ط أولى ١٩٩٠م، ص١١٣.

فالجواب عن الأول باختصاص العدد بواحد واثنين، وذلك لأن المقام في سياق التفكر والتدبر، ولكل واحد من العددين المذكورين مزية ينفرد بها عن الآخر، ثم يعضدان بعضهما بعضاً حين تميل النفس للهوى، أو حين يقع الخلط.

ومن ثمَّ يتم استبعاد الجماعة في مسألة التفكير والتدبر "لأن العقلية الجماعية كثيراً ما تتبع الانفعال الطارئ "[1] وحالات الصخب، ويكون في اجتماعهم تشويش العقل و خلط القول، "أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه متصادقين متناصفين، لا يميل بهما اتباع الهوى، ولا ينبض لهما عرق عصبية "[2].

فمزية العدد "مثنى" العرض على الصاحب طلباً للإنصاف ثم يعالج التفكر بـ "الفردية" التي تعطي للإنسان صفاء ذهن واستقرار حال حين يتجرد من التعصب، ويصفو خاطره وتتحرر نفسه من حظوظها قال الشاعر:

إذا اجْتَمَعُوا جاءُوا بِكُلِّ غَرِيبَةٍ * فَيَزْدادُ بَعْضُ القَوْمِ مِن بَعْضِهِمْ عِلْما**[3]

وليس معنى هذا أن الفردية قد سلمت مما عيب به الاجتماع في قيامهم مثنى، بل إن الفردية قد يقل معها الإنصاف، ويطفوا على سطحها الاعتساف، وينبت في تربتها نكران الآخر وعدم الاعتراف.

---

(١) د محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ط أولى، فبراير ١٩٩٨م، ٣٠٦/١١.

(٢) الزمخشري: الكشاف ٥٩٠/٣.

(٣) البيت من الطويل، ولم أقف على قائله، وأورده بن عطية في تفسيره و أبو حيان من دون نسبة إلى قائله، ينظر: ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت، ط أولى ١٤٢٢هـ، ٤٢٥/٤، أبو حيان: تفسير البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر العربي ١٤٢٠هـ، ٥٦١/٨.

فكانت المطالبة بدوران التدبر بين الاثنين حيناً، والواحد منفرداً حيناً آخر.

والجواب عن الثاني وهو العدول عن ترتيب العدد، فإن التقديم والتأخير للأدنى يحدده المقام فقد " يكون في كل واحد من الأمرين صفة تقتضي التقديم، لكن تكون إحداهما أهم في مكان فيقدم فيه وإن أخر "[1]

فـ "فرادى" لها التقدم بالذات والطبع، و "مثنى" لها التقدم بفضيلة الجمع، فكما أن العبادة يستعان عليها بالجماعة، فكذلك التفكر لا يزيغ معه اثنان، فجاءت الآية " مَثْنَى وَفُرَادَى" بالأعلى فالأدنى في العدد المعدود فقدَّم مثنى على فرادى "لأن الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحدة، فإذا انفتح الحق بين الاثنين فكَّر كل واحد منهما بعد ذلك فيزيد بصيرة "[2].

والإضافة الأخرى التي قدَّمها العدد " مَثْنَى " إفادة الجمع بعدم تعيين شخصين، إذ لو كان تعيين لقيل في غير القرآن " أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ اثنين" ولكن العدول هنا إلى "مثنى" أفاد اثنين واثنين، وكأنها هيئة لما ينبغي أن يكون عليه تفكر جمهرة الناس.

مما سبق نستنبط أن "مَثْنَى" يجيء معدولاً عن اثنين مجيئاً غير مألوف في الأعداد، ومرد ذلك إلى عدة أسباب منها:

١- إزالة الاحتمال بالزواج من هذه الأعداد، مجموعة كلها أو بعضها، فلا يجوز للرجل أن يتزوج خمساً بجمعه بين اثنين وثلاث، ولا أن يتزوج سبعاً بجمعه بين ثلاث وأربع.

٢- أن العدد الصحيح في الآية يحمل إطناباً وتكراراً فجيء بالمعدول للإيجاز فسدَّت "مَثْنَى" مسدّ "اثنين اثنتين" فمنعت التكرار واختصرت الكلام؛ " لأن

(١) ابن الزملكاني: التبيان، ص١٤٩.

(٢) ابن عطية: المحرر الوجيز، ٤/٤٢٥.

المراد من الآية تعريف ما أبيح للناكح من الجمع بين حرائر النساء، فعدل عن الصحيح إلى المعدول توخياً للإيجاز "[1].

ويتضح بذلك أن ذكر العدد الصحيح "اثنتين" منفرداً يقتضي الجمع، وذكره مكرراً "اثنتين اثنتين" يقتضي الإطناب وهذا غير مراد في خطاب التلقي.

٣- أن العدول فيه إشارة وإيماء إلى العدل الذي هو ضد الظلم، وهو الخطاب العام للآيات؛ لأنك إن قلت " جاء القوم مثنى، لدلَّ على مجيء مرتبٍ "اثنين اثنين"، وهذا ترتيب تساوٍ وتنظيم وعدم تمايز، لهذا عدل القرآن الكريم إلى استخدامه ليومئ إلى وجوب العدالة بين الزوجات"[2]. ولما كان الجذر واحداً بين العدل وبين العدول ناسب دلالة العدول على معنى العدل بين الزوجات.

(١) ابن أبي الإصبع المصري: بديع القرآن، تحقيق: حنفي محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع (د.ت)، ص١٧٤.

(٢) د/ عائد علوان الحريزي: العدد في القرآن الكريم، طبعة الكوفة كلية الآداب – مجلة اللغة العربية وآدابها – العدد ١٠، ص٢٠.

الخاتمة

- تعددت مسارات تلقي الآيات في الخطاب القرآني بين العقيدة، والتشريع، والقصص، والإشهاد في مضمار ثنائية العدد، وتقاسمت السور المكية والمدنية هذه المسارات، وإن تميزت السور المكية بموضوعات العقيدة مثل سورة النحل، وغافر، والإيمان بالرسل مثل سورة هود والمؤمنون ويس وسبأ، ووصف القرآن مثل سورة الحجر والزمر، وطلاقة القدرة الإلهية في الخلق والإيجاد كما في سورة فاطر، وهي موضوعات متنوعة إلا أنها تصب في باب الاعتقاد.

وتميزت السور المدنية بالحديث عن التشريع من ميراث ونكاح وإشهاد في الوصية كما هو الحال في سورتي النساء والمائدة.

- أن العدد الثنائي جاء صريحاً مذكراً "اثنين" و مؤنثاً "اثنتين"، وجاء مشتقاً "ثاني" وكذا جاء معدولاً في "مثْنَى"، وهذا التنوع كان له أثره في خطاب التلقي.
- كان للتلقي دوره في تراتب العدد من الأدنى للأعلى، لكنه جاء على خلاف القاعدة في قوله تعالى " أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ" من الأعلى للأدنى لمرمى بلاغي، وسر بياني في التقديم والتأخير.
- ورد العدد "اثنين" مؤيداً لرفع الإيهام كما هو الحال في آية النحل " لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ"، وجاء دالاً على المثنى بعلامته وعدده في قوله " أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ" لبيان طلاقة القدرة الإلهية، وجاء العدد كذلك بدل تفصيل ليبين طريقة التوزيع وتمييز الأنواع مثل قوله تعالى " ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ".
- قد يجيء العدد وليس المقصود منه الترتيب أو الرتبة بل المقصود منه النصر والتشريف كما في آية التوبة "ثَانِيَ اثْنَيْنِ".
- أن العدد جاء لتقوية الحق وتأييده مثل قوله في سورة يس " إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ" لإقامة الحجة على القوم.

– ومما جاء في العدد إفادته معنى الزيادة "فوق اثنتين" فضلاً عن إفادته الحكم تفصيلاً.

– وأخيراً ورد العدد "اثنان" معدولاً في ثلاث آيات من سورة النساء وفاطر وسبأ.

فهرس المصادر

- إبـراهيم الأبيـاري: الموسـوعة القرآنيـة، مؤسسـة سـجل العـرب، ط ١٤٠٥هـ.
- ابن أبي الإصبع المصري: بديع القرآن، تحقيق: حنفي محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر (د.ت).
- ابن أبـي زَمنِين: تفسير القرآن العزيز، تحقيق أبو عبدالله حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز، الناشر الفاروق الحديثة مصر، ط أولى ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبدالرازق المهدي، دار الكتاب العربي بيروت ط أولى ١٤٢٢هـ.
- ابـن الزَّملكـاني: التبيـان فـي علـم البيـان المطلـع علـى إعجـاز القـرآن، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، طبعة العاني بغداد، ط أولى ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.
- ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد على النجار – مكتبة العلمية.
- ابـن حجـر العسـقلاني: فـتح البـاري شـرح صـحيح البخـاري، صـححه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة بيروت ١٣٧٩هـ.
- ابـن خالويـه: الحجـة فـي القـراءات السـبع، دار الشـروق بيـروت، ط رابعة، ١٤٠١هـ.
- ابـن عـادل الحنبلـي: اللبـاب فـي علـوم الكتـاب، تحقيـق: عـادل عبـد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – ط أولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ابـن عطيـة: المحـرر الـوجيز فـي تفسـير الكتـاب العزيـز، تحقيـق: عبدالسـلام عبدالشـافي محمـد، دار الكتـب العلميـة بيـروت، ط أولـى ١٤٢٢هـ.

- ابن قتيبة الدينوري: تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمد حسين شمس الدين – دار الكتب العلمية – منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط أولى ١٤١٩هـ.
- أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي بيروت [د.ت].
- أبو حيان: تفسير البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر العربي ١٤٢٠هـ.
- أبو داود السجستاني: السنن، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قرة، دار الرسالة العالمية، ط الأولى ١٤٣٠/٢٠٠٩م.
- أبو زرعة عبدالرحمن بن محمد: حجة القراءات، تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الرسالة.
- الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- الباقلاني: إعجاز القرآن، تحقيق السيد صقر، الناشر دار المعارف – القاهرة.
- البخاري: الجامع المسند الصحيح، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر– دار طوق النجاة– ط أولى ١٤٢٢هـ.
- البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط أولى ١٤١٨هـ.
- تفسير ابن عرفة، تحقيق: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط أولى ٢٠٠٨م.

- جبريل محمد عثمان: نظرية السياق عند فيرث، مجلة العلوم الشرعية- الجامعة الأسمرية الإسلامية- كلية العلوم الشرعية بمسلاتة، أكتوبر ٢٠١٦م
- الجصاص أبو بكر: أحكام القرآن، تحقيق عبدالسلام محمد علي شاهين – دار الكتب العلمية بيروت لبنان – ط أولى ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- جعفر شنان حسن وآخران : مسارات التلقي للقصة القرآنية عند القدامى، المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد ١٤- أغسطس ٢٠٢٠م
- حامد صادق قنيبي: مملكة النبات كما يعرضها القرآن ويصفها، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة الحادية عشرة – العدد الثالث ربيع أول ١٣٩٩هـ.
- حسن عبدالهادي الدجيلي [دكتور]: جذور النظرية السيميائية في الخطاب القرآني، كلية الآداب – الجامعة المستنصرية (د.ت).
- الخطيب الإسكافي: درة التنزيل وغرة التأويل، تحقيق محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، ط أولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، تحقيق د/ مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، ط دار ومكتبة الهلال.
- ديوان الهذليين، تعليق: محمد محمود الشنقيطي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة،١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
- ديوان حسان بن ثابت، شرح وتعليق عبد مهنا، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط ثانية ١٤١٤هـ،١٩٩٤م.
- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، ودار المعرفة بيروت، لبنان، ط أولى ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

- الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ثالثة، ١٤٠٧هـ.
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق/ عبدالرحمن ابن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط أولى ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠م.
- السمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم دمشق.
- السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
- الصرصري الحنبلي: الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، تحقيق محمد حسن محمد، دار الكتب العلمية بيروت لبنان – ط أولى ١٤٢٦ هـ/٢٠٠٥م.
- صلاح الدين خليل بن كيلكلدي: الفصول المفيدة في الواو المزيدة: تحقيق د. حسن موسى الشاعر، دار البشير – عمان – ط أولى ١٩٩٠م.
- الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر – تونس، ط ١٩٨٤م.
- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والإعلام، ط أولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م
- الطيبي: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، تحقيق: إياد محمد الغوج، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم – ط أولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.
- عائد علوان الحريزي [دكتور]: العدد في القرآن الكريم، طبعة الكوفة كلية الآداب – مجلة اللغة العربية وآدابها – العدد ١٠.

- عبد الفتاح القاضي: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان.
- عبد المجيد الشيخ عبدالباري: الروايات التفسيرية في فتح الباري، الناشر: وقف السلام الخيري ط أولى ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٦ م.
- عبدالرحمن الثعالبي: "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: أولى ١٤١٨هـ.
- عبدالرحمن سعود إبداح [دكتور]: العدد في القرآن الكريم لطائفه ومسائله، دروب للنشر والتوزيع عمَّان – الأردن، الطبعة العربية ٢٠١٦م.
- عثمان فكري: التلقي والأسلوب الصحفي، الناشر المكتب العربي للمعارف– القاهرة، ط أولى ٢٠١٦م
- علي علي صبح [دكتور]: التصوير القرآني للقيم الأخلاقية والتشريعية – المكتبة الأزهرية للتراث– ص٢٨٦.
- عواطف كنوش المصطفى: الدلالة السياقية عند اللغويين، دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع_ لندن– ط أولى ٢٠٠٧م
- فاطمة البريكي: قضية التلقي في النقد العربي القديم، دار العالم العربي للنشر والتوزيع، الإمارات – دبي، ط أولى ٢٠٠٦م
- الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط ثالثة، ١٤٢٠هـ.
- الفيروزأبادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار – الناشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط ١٩٩٦م.
- القاسمي، محمد جمال الدين: محاسن التأويل، تحقيق/ محمد باسل عيون السود – دار الكتب العلمية بيروت – ط أولى ١٤١٨هـ.

- القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان (د.ت).
- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة – ط ثانية ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.
- الكيا الهراسي: أحكام القرآن، تحقيق: موسى محمد علي– عزة عبد عطية، دار الكتب العلمية– بيروت، ط ثانية ١٤٠٥هـ.
- محمد المكي الناصري: التيسير في أحاديث التفسير، دار الغرب الإسلامي بيروت – لبنان ط أولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- محمد بن أحمد الأزهري الهروي: معاني القراءات، مركز البحوث في كلية الآداب – جامعة الملك سعود – ط أولى ١٤١٢هـ،١٩٩١م.
- محمد سيد طنطاوي [دكتور]: التفسير الوسيط، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ط أولى، فبراير ١٩٩٨م.
- محمد صديق خان: فاتح البيان في مقاصد القرآن، راجعه: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري – المكتبة العصرية للطباعة والنشر – صيدا بيروت – ط ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- محمد عبدالمنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط ثانية ١٩٨٠م.
- محمد علي أبو زيد [دكتور]: الحكم البلاغي للمحكم والمتشابه في مجال التعبير للعدد القرآني، بحث منشور في كلية اللغة العربية بالزقازيق .
- محيي الدين الدرويش: إعراب القرآن وبيانه، دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سوريا، دار اليمامة – دمشق بيروت، ط رابعة ١٤١٥هـ.

- مصطفى النحاس [دكتور]: العدد في اللغة (دراسة لغوية ونحوية) مكتبة الفلاح – الكويت، ط أولى ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
- مقبل بن هادي الوادعي: الصحيح المسند من أسباب النزول، مكتبة ابن تيمية– القاهرة، ط رابعة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧.
- مؤيد عبيد آل صوينت: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي، كلية الآداب – الجامعة المستنصرية ١٤٣٠هـ– ٢٠٠٩ م، رسالة دكتوراه.
- النيسابوري: التفسير البسيط، تحقيق: جامعة الإمام محمد بن سعود، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة، ط أولى ١٤٣٠هـ.
- يحيى بن حمزة العلوي: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز– المكتبة العصرية بيروت– ط أولى ١٤٢٣هـ.